
آنا كارينا
المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٣٧
Bibliotheca Alexandrina
0145579

ليو تولستوي

أنّا كارنينا

القِصّةُ الإنسانيّةُ الخالِدةُ

المكتبة الثقافية
بيروت - لبنان
ص. ب. ٨٧٣٧

ليو تولستوي

١٨٢٨ – ١٩١٠

- صاحب رسالة إجتماعية قوامها المساواة والمحبة والسلام .
- ولد في أوائل القرن الماضي وتوفي في العاشر من هذا القرن ..
- خرج إلى الدنيا نبيلاً يحمل لقب كونت ، وورث عن أبويه أرضاً واسعة وأطياناً كثيرة .. ولكنه كان في قرارة نفسه أقرب إلى الشعب منه إلى نبلاء قومه .. وقد نازعته نفسه غير مرة أن يتخلى عن أطيانه ومزارعه ، لمن يعمل فيهـــا من الفلاحين .. فوقف أولاده في وجهه ، وصارحوه بمعارضتهم فتردد زمناً ، ثم استقام له ما أراده في أواخر أيامه ، فعاش مـــع الفلاحين وعمل في الحقول ، فصنع أحذيته وأحذية أولاده بيده ، ولما أحس أنه ليس بمستطيع إقرار مبادئه على الوجه الأكمل ، عمد إلى القصة يصور فيها أمانيه وأحلامه ، من وصف الرذيلة وتقبيحها والاكبار من شأن الفضيلة وتعظيمها ..
- وانا لنراه فيما كتب من رسائل ومذكرات ، يقرّ بعجزه عن رفع المستوى الخلقي في الحياة .. ونشعر بنقمته على عجزه هذا ، ثم نراه يغادر الدنيا ونعيمها ، مفضلاً حياة النسك والتقشف على مباهجها ، مغادراً في الثمانين

من عمره ، أهله وولده ، ليعيش في دير بقية أيام حياته ..

- إنه أحد الخالدين من كتاب القصة في العالم .
- وأدبه أدب الحياة التي تتفجر فيها الشهوات .. في صراع دائم مع المبادىء السامية ونذر الفضيلة ..
- وأخيراً هذه صورة متواضعة لأشهر كتاب القصة الإجتماعية الإنسانية في العالم .. ولد في قصر يضم عشرات الغرف ، وشب فتى مدللا يتيه في مشيته ، ويتأنق في ملبسه ، فلما استوى شيخاً عزف عن هذا كله ، وتذكر المعذبين والبائسين من قومه ، فأراد أن يواسيهم ، عملا لا قولاً ، فارتدى ملابسهم وعاش حياتهم ، يخدم نفسه ويكتب للناس مؤيداً مذهبه ، داعياً إلى السلام والرحمة والحب .. حتى آخر نسمة من حياته ..
- هذا هو ليون تولستوي الكاتب الروسي الشهير ، وأحد الخالدين من كتاب القصة الإنسانية في العالم ..
- أشهر قصصه « الحرب والسلام » «والبعث» « وانا كارنينا » التي يعتبرها بعض النقاد أسمى كتبه وأبعدها تأثيراً ، وأشدها في النفس وقعاً ..

– ١ –

الخيانـــة

العائلات السعيدة تماثل بعضها بعضاً ، وأمـــا العائلات التي تجافيها السعادة فتختلف تعاستها باختلاف الصدمة التي أصابتها فروّعتها . .

عمت الفوضى منزل (او بلونسكي) . . لما اكتشفت الزوجة أن زوجها يخونها مع المربية الانكليزية ، فنقمت عليه وأنذرته أنهـا لن تطيق البقاء معه في منزل واحد .

وامتدت هذه الحالة أياماً ثلاثة ، انتقلت عدوى الخلاف بـين الزوجين في أثنائها إلى الخدم والخادمات . . لما أحس كل واحد منهم ، ان الحالة أصبحت لا تطاق ، وأنه لم يبق من فائدة ترجى في بقاء الزوجين تحت سقف واحد . .

واحتجبت الزوجة في غرفتها بعـد إن أقفلت بابها عليها . . وانقطع الزوج عن المجيء إلى المنزل ثلاثة أيام متواليات ، وأحس الأطفال بانعدام الوازع فعاثوا في البيت فساداً ، واختلفت المربية الانكليزية مـــع المشرفة على إدارة المنزل ، فكتبت إلى صديقة تسألها أن تبحث لهـــا عن عمل في منزل آخر . . كما غادر الطاهي البيت في موعد تناول طعام الغداء . . دون مـا إنذار سابق ، وأخيراً أعلنت الطاهية عزمها على الإستقالة ، وفعل السائق مثل ذلك . .

فلما كان اليوم الرابع على بدء الخلاف ، أفاق البرنس ستيفان اوبلونسكي في الساعة الثامنة صباحاً ، كما كان من عادته أن يفعل ، ليس في غرفة زوجته كما هي العادة .. وإنما في مكتبه الخاص ..

وتمطى يميناً وشمالاً ، وعاوده الحلم الجميل الذي تراءى له في نومه .. فابتسم راضياً مسروراً ، ثم عادت به الذكرى إلى واقعه المؤلم .. وكيف أنه على خلاف مع زوجته ، بسبب الهفوة التي ارتكبها ، فاكفهر وجهه ، وأخـذ يسأل نفسه فيما إذا كانت زوجته ستغفر له جرمه ، أما انها ستصر على مقاطعته وعقابه .

وأحس بجسامة الهفوة التي ارتكبها .. كان عليه أن يكون أكثر تحايـلا وبعد نظر ، فـلا يعترف بجرمه في وضح النهار ، ولا يبرر خطأه بالإعتراف الصريح المؤلم ..

وتذكر كيف حدثت المأساة ، فقد وقعت زوجته على تحرير له من عشيقته ، فأرعدت وأبرقت وأغلقت باب مخدعها عليها .. فلما جـاء يسألها عن شأنها ، أرتـه الرسالة ، فابتسم ولم يستطع الإنكار ، ولا أحسن الإعتذار ، ولو فعل لانتهت الأزمة ، وعادت زوجته إليه .

أراد أن يكون صادقاً مـع نفسه ، لا يحرمها من العبث ولا يردها عن اللهو والمرح ، مبرراً سلوكه هـذا بأنه وهو في الرابعة والثلاثين من عمره لا يستطيع أن يحب زوجة في مثل سنه ، أنجبت سبعة أطفال ، مـات منهم اثنان ، وبقي خمسة يملأون البيت ضجة ويقيمون الدنيا ويقعدونها ..

* * *

وعاد إلى نفسه بعد قليل ، فأحس بحرج الموقف ، وأشفق على إمرأته ، وعلى أولاده وعلى نفسه ..

فليس يصح منه أن يكون سبب شقاء هؤلاء الأطفال الأبرياء .. وهـذه المرأة المخلصة الوفية ..

ولو درى أن خيانته ستجر كل هذا الشقاء ، لتحايل وتستر وأخفى مباذله ، وستر فضائحه ..

ولكنه على بساطة قلبه، كان يعتقد أن زوجته ، وقد انصرفت للعناية ببيتها وأولادها ، كان يحسن بهـا أن تغض النظر عن بعض تصرفاته ، وتغمض عينيها عن هفوات زوج مثله ، ينعم بالشباب والصحة والحيوية ..

وغمغم يقول لنفسه : هذا مخيف .. لقد كنا سعيدين قبل هـذه الحادثة .. وكانت (داريا) زوجتي قانعة بحياتها بين أولادها وخدمها .. لقد كان من فساد الذوق أن يتصل الرجل بمربية أولاده .. ولكن يا إلهي أية مربية !.

وعادت صورة المربية تخطر أمامـه .. وتذكر نظراتها المغرية ، وابتسامتها الفاتنة فتنهد وهتف :

— ما العمل الآن ..

كان لا بـد من عمل شيء .. يخفف من حدة الموقف ، ويطفىء النار إذا أمكن ..

استوى جالساً ودق الجرس ، فأقبل خادمـه العجوز ماتيو ، يحمل له ثيابه وحذاءه وبرقية ..

وألقى اوبلونسكي نظرة على البرقية ثم تهلل وجهه وقال :

— غداً تصل اختي (انا كارنينا) يا ماتيو .. فهتف الخادم فرحاً ، وتمنى في قرارة نفسه أن تتمكن (انا كارنينا) من اصلاح ذات البين بـين الزوجين .. وسأل سيده :

— هل نجهز لها إحدى غرف الطابق الثاني ..

— الأفضل أن تسأل زوجتي ..

وأدرك الخـادم أن سيده يريد أن يسبر غور زوجته ، ليتأكد من موقفها ، فانطلق إلى مخدع الزوجة ، ثم عاد ليقول :

— لقد أجابت بأنها ستبرح المنزل ، ولك أن تفعل ما تشاء ..

فارتسمت على وجه اوبلونسكي ابتسامة محزنة وغمغم يقول :

— ما العمل يا ماتيو ؟.

— هوّن عليك يا سيدي فالمسائل تحل نفسها ..

وسمع الاثنان حفيف ثوب، ودخلت على الأثر (ماترينا فليمونوفنا) خادمة الأطفال فسألها اوبلونسكي :

– ماذا تريدين يا ماترينا ؟

فقالت الخادمة : ألا تقوم بمحاولة أخرى يا سيدي .. حاول بحق السماء .. ان زوجتك تتألم كثيراً ، وكل شيء في المنزل قد أصبح رأساً على عقب .. فحاول إرضاءها رحمة بأطفالك وأطفالها ..

فقال : ولكنها ترفض مقابلتي ..

– جرب يا سيدي فقد تنجح ..

– حسناً .. سأفعل ..

ارتدى ثيابه ، وجلس يتناول طعامه ، ويقرأ إحدى صحف الأحرار ..

ولم يكن للرجل رأي خاص في فن أو سياسة ، ولكن الأحرار كانوا يمثلون الأغلبية فليكن منهم .. مبدلاً مبادئها ما بدلت الأغلبية مبادئها .. كما كان يغير قبعته كلما ظهر طراز جديد من القبعات ..

ولكنه كان يعطف على مبادىء الأحرار لأنها كانت تمثل حالته بالتأكيد ..

كان الأحرار يقولون : ان كل شيء في روسيا فاسد .. وكانت ميزانية (اوبلونسكي) قد أثقلتها الديون وأفسدها التبذير فهي والحالة تسارق روسيا في الفساد والفوضى ..

وطالب حزب الأحرار بإصلاح الزواج ، وكانت حياة (اوبلونسكي) الزوجية بحاجة إلى كثير من الرتوش والإصلاح ..

وانتهى من طعامه ، وألقى بالصحيفة جانباً ..

بقي عليه أن يذهب لخدع زوجته ..

ووقف متردداً .. فقد كان يكره النفاق والرياء ، ويعتقد ان أية قوة في الوجود لا ترد إلى إمرأته جمالها السابق .. أو تجعل منه شيخاً هرماً لا يستطيع عبثاً ولا لهواً .

لم يكن باستطاعته أن يقف بارداً أمام الجمال الثائر والفتنة المغرية ..

وهو بالتأكيد سيتبع هــذا الجمال ويتأثره ، كما فعل في السابق .. فكيف والحالة هذه يستطيع أن يعد إمرأته بأن سيتوب .. لتعفو وتصفح ..

وفجأة سمع صوت أولاده يتصايحون .. فأدرك ان الحــالة لم تعد تتقبل التأجيل ، وان عليه تسوية الأمر مع زوجته ، كيفما كان الحال ..

* * *

كان المخدع في فوضى مرعبة .. وقد وقفت (داريا) تطوي ثيابها لتضعها في حقائبها .

ثم سمعت وقع خطوات، فاستدارت نحو الباب وحاولت أن تتكلف الصلابة والإحتقار فلم توفق ..

لقد ترددت فيما تفعله غير مرة.. حاولت مغادرة البيت إلىدار أبيها ولكنها كانت أبداً تتراجع وتتخاذل ، وتفكر في هجره ملياً ، ثم تعود إلى نفسها فإذا هي لا تطيق ذلك لأنها تحبه ..

ولأنها لا تستطيع أن تحمل أولادها الخمسة إلى دار أبيها، حيث يتعذر عليها العناية بهم كما ينبغي ، ولا هي تستطيع أن تتركهم في بيت زوجها ، فـلا يعنى أحد بنظافتهم وأطعامهم ، والمحافظة عليهم ..

ولما شاهدته يقف على عتبة الباب ، كان وجهه مليئاً بالحيرة والألم العميق ..

وغمغم الزوج يقول : داريا .

وأخنى رأسه ندماً وخنوعاً ويأساً ..

ورفعت نظرها إليه ، ونقمت عليه نشاطه ومرحه ، فقد كان رغم تظاهره بالندم والخضوع .. بيّن المرح ظاهر النشاط..

وسألته بسرعة وجفاء : ماذا تريد ؟

فغمغم يقول : ان اختي ستحضر غداً ..

— ماذا يهمني .. اني لا أستطيع استقبالها ..

— من اللياقة أن تستقبلينها .

فصاحت فيه : أغرب من وجهي .

واغرورقت عيناه بالدموع وهتف يقول :

ـ يا إلهي .. ماذا فعلت يا داريا ؟.

واحتبس لسانه .. فلم يتم عبارته .. ولما تمالك نفسه راح يقول :

ـ ماذا أستطيع أن أفعل غـــير أن أطلب الصفح .. لقد قضينا معاً تسعة أعوام كنا في خلالها أسعد زوجين ..

أفلا تشفع سعادتنا الماضية بما جرى في لحظة جنون ..

وعضت على شفتيها وقالت :

ـ لا تخبرني عن لحظة جنونك .. واذهب عني .

وأرادت الإبتعاد .. ولكنها ترنحت ، واستندت إلى أحـــد المقاعد لتمنع نفسها من السقوط .. وتنهد اوبلونسكي .. وقال والدموع تترقرق في عينيه :

ـ فكري في الأطفال يا داريا ، أي ذنب جنـاه هؤلاء الأبرياء !! إفعلي بي ما شئت .. فإنني أستحق العقاب .. قولي ماذا يجب أن أصنع .. وكيف اكفر عن جريمتي !! إنني مذنب .. وليس عندي ما أقوله أكثر من أن أطلب صفحك وغفرانك ..

فتهالكت داريا على المقعد .. وسمع اوبلونسكي أنفاسها اللاهثة ، وشعر نحوها بالرحمة والشفقة .. وحاولت المرأة مراراً أن تتكلم .. فلم تستطع .

ووقف اوبلونسكي وقفة المذنب بين يدي قاضيه .. إلى أن قالت داريا ..

ـ انك لا تفكر في الأطفال إلا إذا أردت أن تداعبهم .. أمـــا أنا فإنني افكر فيهم دائماً .. ولتعلم انك ضيعتهم الآن وجلبت عليهم الشقاء ..

وصمتت لحظة وهي تلهث .. ثم استطردت تقول :

ـ نعم .. إنني افكر فيهم دائماً .. وأريد أن أنقذهم مهما كلفني ذلـــك .. ولكني لا أعلم كيف أنقذهم .. وهـل أنتزعهم من أحضان أبيهم .. أو أتركهم لهذا الأب الفاسق المتبذل ..

« أفتظن أن من الممكن أن نعيش معاً بعد الذي حدث ؟. أفتظن أن ذلك ممكن !. تكلم .. هل يمكن أن تستقيم لنا الحياة ، بينما زوجي ووالد أطفالي

يغازل مربيتهم ويراودها ؟

فقال بصوت خافت .. وهو يشعر بالمزيد من الضعة والهوان :

– ولكن ما العمل ؟ ما العمل الآن ؟

فصاحت في غضب وانفعال :

– انك رجل مقيت .. وهـذه الدموع التي أراها في عينيك هي دموع التماسيح ..

« انـك لم تحبني قط .. ولم تعرف قط معنى الرحمة والكرامة والشرف . وإني لا أرى فيك الآن إلا رجلاً مقيتاً غريباً عني .. لا يجب أن تربطني بـه أية رابطة » ..

وقد نطقت بهذه العبارات بلهجة تنم عن الألم والموجدة .. وأدهشته ثورتها . وأخافته .. ولم يدرك أن اشفاقه عليها قد ضاعف حنقها .. لأنها وجدت هذه الشفقة حيث كان يجب أن تجد الحب .

وقال لنفسه : كلا .. انها تمقتني .. ولن تغفر لي ..

* * *

.. سمع الزوجان في هذه اللحظة بكاء أحـد أطفالها في الغرفة المجاورة .. فأرهفت داريا أذنيهـا .. وانبسطت أساريرها فجأة .. ونهضت مسرعة .. وقصدت إلى الباب ..

ولاحظ اوبلونسكي التحول الذي طرأ على ملامحها ، وقال لنفسة :

– انها تحب أولادي .. فكيف يمكن إذن أن تمقتني ؟

ثم تقدم في أثرها ، وهو يقول بصوت مرتفع :

– كلمة أخرى يا داريا ..

فصاحت : إذا سرت في أثري .. فإنني سأدعو الخدم والأولاد .. لأشهدهم جميعاً على انك وغد ونذل ..

« إنني سأبرح هـذا البيت بعد قليل .. وفي استطاعتك أن تقيم فيه مع عشيقتك متى أردت » .

وانصرفت من الغرفة . واغلقت الباب وراءها بعنف .

وتذكر اوبلونسكي صياح زوجته . وقال :

– لقد سمع الخدم صياحها.. يا إلهي ..

وظل جامداً في مكانه لحظة .. ثم دعا خادمه ماتيو وقال له :

– عليك أن تتعاون مع (ماترينا فليمونوفنا) لإعداد غرفـــة الإستقبال الصغيرة لإقامة اختي أنـّا .. »

وحمل عصاه وتأهب للخروج .. فسأله ماتيو :

– هل يعود سيدي لتناول طعام الغداء ؟

فتردد اوبلونسكي قليلاً ثم أجاب : لا أعلم .. سوف نرى ..

وعادت (داريا) إلى مخدعها بعد ذهاب زوجها ، فأطلت (ماترينا) الخادمة برأسها من الباب وسألتها :

– أليس من الأفضل أن أدعو أخي لإعداد الطعام .. أننا إذا لم نفعل قضى الأطفال يومهم جياعاً كما حدث البارحة ..

فقالت (داريا) : أرسلي في طلبه ..

– ٢ –

غرام فاشل

كان (اوبلونسكي) رغم صغر سنه ، يشغل منصباً هاماً في موسكو .. حصل عليه بواسطة الكسيس كارنين ، زوج شقيقته (أنـّا) .. وكان هــذا وزيراً له شأنه وخطره في الحكومة ..

وكان (اوبلونسكي) من كبار النبلاء ، نصف عظماء موسكو من أقاربـــه

وأصدقائه ، وكلهم يعطفون عليه ولا يحجبون عنه مساعدتهم مـا كان إلى ذلك سبيل ..

وكان محبوباً من الجميع لمرحه ونزاهته وانبساط أساريره ، وطلاقة وجهه ، وتواضعه ، فلما وصل إلى مقر عمله ، حياه الموظفون فأحنوا رؤوسهم إحتراماً ، ثم جلس أمام مكتبه يضاحك مرؤوسيه ويباسطهم ، وأخيراً بـدأ عمله بقراءة ما يعرض عليه من الأوراق ..

فلما كانت الساعة الواحدة ، دخل عليه شاب طويل القامة عريض الكتفين، ما كاد يراه حتى وثب من مقعده هاتفاً :

– أهذا أنت يا ليفين !

وشدّ على يده بحرارة وقبله وسأله :

– متى وصلت إلى موسكو ؟

فأجابه الشاب : وصلت الآن وجئت خصيصاً لأتحدث إليك ..

– كم أنا مسرور من رؤيتك .. ولكن مـا قولك إذا تناولنا طعام الغداء معاً ؟.

فقال الشاب : لا أظن إني أستطيع ذلك .. ثم أن حديثي لن يستغرق وقتاً طويلاً .. ماذا عندك من أنباء البرنس شرباتسكي وامرته ؟

فابتسم (اوبلونسكي) .. لأنه كان يعلم أن (ليفين) صديقه مفتون بالآنسة كاترين ، ابنة البرنس شرباتسكي ، وشقيقة زوجته (داريا) ..

– أنهم في أحسن حـال .. وتراهم الآن في حديقة الحيوانات حيث يتزلجون فوق الثلج .. فكاترين تذهب إلى هناك كل يوم بين الرابعة والخامسة .

فسر ليفين وقال لصديقه : هل انتظرك هناك ؟

– نعم .. ثم نتناول العشاء معاً ونتحدث فيما أنت في سبيله .

* * *

إنصرف ليفين ناقماً على نفسه لأنه لم يجرؤ على التحدث إلى صديقه بأنه إنما

جاء إلى موسكو ليطلب يد كاترين ..

وكانت اسرتا شرباتسكي وليفين من أعرق الأسر الروسية ، توثقت الإلفة بينهما ، وكاد ليفين يقع في غرام داريا ، ثم سبقه اوبلونسكي إليها ، فأحب كاترين اختها ، وراح يعتبرها ملاكاً سقط من السماء إلى الأرض .

ولكنه كان خجولاً حيياً ، لا يجرأ على مجاهرة كاترين بحبه ، ولا على طلب يدها من أهلها ، حتى لكان يعتقد أنه دونها بمراحل ، وأن اسرتها لا يمكن أن تجد فيه زوجاً جديراً بها ، وهو الذي يقضي حياته في الريف ، مجهولاً مغموراً ، لا هم له إلا تربية الأبقار وإنشاء الحظائر ، بينما أقرانه يشغلون المناصب الرفيعة والمراكز الخطيرة في الجيش والحكومة .

بيد أنه لم يكد يعود إلى الريف حتى أحس بالفراغ حوله ، وبالوحشة تملأ قلبه ، فعاد إلى موسكو ليطلب يد كاترين ، فيعود إلى حياته زهوها .. وإلى قلبه هدوءه وانطلاقه .

ووصل إلى حلبة الإنزلاج على الثلج ، وبرزت كاترين أمام عينيه كالوردة من خلف الضباب ، وكالزهرة بين الأشواك ، فسُمّر في مكانه ، وخيل إليه أن أنفاسه قد تقطعت ..

وأطرق برأسه ، وتولاه الذهول والإضطراب ، وفجأة سمع صوتاً يقول :

– هـذا بطل روسيا في الإنزلاج على الثلج .. متى حضرت إلى موسكو يا ليفين ؟ تقدم إلى الحلبة .. ان الثلج بديع .

كان المتكلم ايفان شرباتسكي .. ابن عم كاترين .

أراد ليفين أن يجيبه .. ولكنه أحس بالشمس تقترب منـه .. فاحتبست أنفاسه .. ولم يقو على الكلام .

واقتربت كاترين في شيء كثير من الخوف والحذر .

لم تكن تجيد الإنزلاج فراحت تترنح .. وتـلوّح بساعديها . حتى دنت من ابن عمها .. فألقت بيديها على كتفه لتمنع نفسها من السقوط ..

وخيل إلى ليفين .. أنه لم يرها قط أجمل مما كانت في تلك اللحظة .

كان كلما فكر فيها .. رأى بعين الخيال رأساً أشقر جميلاً قائماً على كتفين معتدلتين .. وصدراً بارزاً مكتمل النضوج ، وعينين زرقاوين بريئتين كعيون الأطفال .

أما اليوم .. فإنه رأى في عينيها الصافيتين الصدق والهدوء .. والصراحة .. ورأى على شفتيها الرقيقتين إبتسامة ساحرة وادعة .. جعلت قلبه يثب في صدره.

وسألته : هل حضرت من موسكو منذ وقت طويل ؟

فأجاب متلعثماً : أنا .. كلا .. حضرت أمس .. بل حضرت اليوم .

ثم أردف على الأثر : لقد حضرت لأراك .

وتذكر لماذا حضر ليراها .. واحمر وجهه .. وقال بسرعة :

— لم أكن أعلم أنك تتزلجين على الثلج بمثل هذه البراعة .

فنظرت إليه بانعام .. كأنها تريد أن تعرف سبب ارتباكه .. ثم قالت :

— هذا إطراء لا استحقه .. ولكني أعتز به .. لأنه إطراء رجل يقول الجميع أنه أبرع لاعب على الثلج .

— الحق إنني أقبلت على هذه اللعبة بحماسة .. لأنها استهوتني فأردت أن أجيدها .

فقالت وهي تبتسم : انك شديد الحماسة لكل ما يستهويك . وكم أود أن أرى مبلغ براعتك .. فهلم نتزلج معاً ؟.

فنظر إليها ليفين ملياً .. ولم يصدق اذنيه .

خلع معطفه .. وتأهب للانزلاج .. وهو يقول لنفسه :

— هل أصارحها الآن ؟ إنني الآن سعيد بآمالي .. فماذا يكون من أمري لو أنها ..

وغاص قلبه بين جنبيه لمجرد التفكير في أن طلبه قد يقابل بالرفض .

ولم تمض بضع دقائق .. حتى كان يتزلج نحوها في خجل .. ولكنه ما لبث أن رأى على شفتيها تلك الإبتسامة الساحرة الحلوة فاطمئن .

وتناول يدها .. وأخذ يدور بها في الحلبة ببطء ، ثم بسرعة وعندئذ أحس

بيدها تضغط على يده .. وسمعها تقول :

— لا شك انك ستساعدني على الإجادة .. فإنني أشعر معك بالطمأنينة .

— ولكني لا أطمئن إلى نفسي . وأنت متكئة على ساعدي .

ثم ذعر لجرأته .. واحمر وجهه .

والواقع .. انه ما كاد ينطق بهذه الكلمات .. حتى أظلم وجهها ، كما يظلم قرص الشمس وراء السحب .. وخيل له أنه رأى على جبينها الناصع تجعدات لم تكن هناك من قبل .

قال : هل حدث ما أزعجك ؟

فأجابت : لماذا ! كلا .. لم يحدث ما يزعجني .

ثم أردفت : ألا تضايقك الإقامة بالرف في فصل الشتاء ؟

— كلا .. ان أعمالي الكثيرة تدفع عني السأم والملالة .

— هل ستطول إقامتك بيننا ؟

فأجاب في غير تدبر : لا أعلم ..

— لا تعلم ؟

— كلا .. ان الأمر منوط بك .

وشعر بجرأته مرة أخرى .. ونظر إليها في ذعر ..

ولعل الفتاة لم تفهمه .. أو لم تشأ أن تفهمه .. لأنها غيرت مجرى الحديث في الحال وسألته :

— هل رأيت امي ؟.

وكان لا يزال في ذعره وذهوله .. حين اقتادته الفتاة إلى حيث كانت امها ..

وقالت الام ببرود وهي تشد على يده :

— يسرني أن أراك يا ليفين .

ثم التفتت إلى ابنتها وسألت : ألا تنصرف الآن يا كاترين ؟

— نعم يا اماه ..

وشرعت تتأهب للانصراف .. وقالت الام :

– اننا نستقبل الزائرين يوم الخميس كما هي العادة يا ليفين .
فأجاب : واليوم هو يوم الخميس .
فقالت بجفاء : نعم .. وسوف يسرنا أن نراك .
ولاحظت كاترين خشونة امها .. وأرادت أن ترفه من وقعها في نفس الشاب .. فالتفتت إليه تقول وعلى شفتيها ابتسامة حلوة :
– إلى اللقاء إذن .
وتأبطت ساعد امها .. وفي هذه اللحظة أقبل اوبلونسكي وهو باسم الوجه يختال في مشيته .
ولكنه ما كاد يرى الأميرة شرباتسكي حتى غاضت الابتسامة عن شفته .
وسألته الأميرة عن ابنتها داريا .. فأجابها مطمئناً وهو مطرق برأسه اطراقة المذنب .. ثم تأبط ساعد ليفين وسأله :
– هل تذهب ؟
فأجاب ليفين وابتسامة كاترين وصوتها ما زالا يملآن بصره وسمعه :
– نعم .. نعم .. هلم بنا .

* * *

وضع اوبلونسكي كأسه على المائدة في خمول وسأل :
– هل في نيتك أن تذهب إلى قصر شرباتسكي هذا المساء ؟
فأجاب ليفين : بالتأكيد ، ولكن يخيل إليّ أن دعوة الأميرة يخالطها شيء من الفتور .
– لا تحزن ، فتلك عادتها دائماً ، ولكن هل تستطيع أن توضح لي سبب فرارك من موسكو في المرة الأخيرة ؟ أن آل شرباتسكي قد سألوني عنك مراراً . فلم أعرف ماذا أقول لهم ، انك في الحق إنسان غريب الأطوار يا ليفين .
فأجاب ليفين ببطء : صدقت ، وليس أدل على ذلك من عودتي اليوم إلى موسكو بعد أن فررت منها كما تزعم .. إنني عدت إليها اليوم لكي .

فقاطعه اوبلونسكي وهو ينظر في عينيه بإنعام :

– لا شك انك سعيد يا ليفين !

– ولماذا ؟

فأجاب اوبلونسكي وهو يبتسم : إنني أعرف الجواد الكريم من بعض خصاله، وأعرف العاشق من نظراته ، ان المستقبل لك يا ليفين .

فاضطرب ليفين ظهراً لبطن ، وهتف :

– إذن فأنت تعرف سبب قدومي .

– بالتأكيد .

– ما رأيك ؟

– أتمنى لك النجاح من كل قلبي .

فاحمر وجه ليفين . وهتف بصوت أجوف :

– هل تعلم حقاً ماذا أعني ؟ وهل تظن أن ذلك ممكن ؟

– ولم لا ؟

– كن صريحاً يا ستيفان ! إنني أشفق من الرفض ، أشفق منه على نفسي .. وعليها .

– مهما يكن من أمر فإن ذلك لا يضيرها . أن جميع الفتيات يشعرن بالخيلاء إذا كثر طلابهن .

– هذا صحيح بالنسبة إلى جميع الفتيات .. أمـــا هي فلا ، أصغ إليّ يا ستيفان ، إنني لم أكشف خبيئة نفسي لإنسان سواك . لأنك صديقي وأنا أحبك رغم اختلاف طباعنا .. وتنافر أغراضنا .. فكن صريحاً يا ستيفان .

فأجاب اوبلونسكي وهو يبتسم :

– لقد صارحتك برأيي .. وإذا أردت المزيد فإنني أقول أن زوجتي تؤمن كذلك بأن المستقبل لك .

– ماذا تعني ؟

– أعني أنها ترحب بك زوجاً لأختها كاترين .

فانبسطت أسارير ليفين .. وارتسمت على شفتيه ابتسامة كدموع الحنان .. وهتف :

- أتقول حقاً ؟ لقد كنت أعتقد دائماً أن زوجتك ملاك كريم .

ثم أردف وهو ينهض عن مقعده :

- كفى .. كفى ... انك جعلتني أسعد مخلوق على ظهر الأرض .

- صبراً لحظة . أريد أن أقول لك شيئاً آخر .. هل تعرف فرونسكي ؟

- كلا .. لماذا ؟

- أنه أحد مزاحميك .

فامتقع وجه ليفين في الحال .. وسأل بصوت ينم عن الجزع والاستنكار :

- ومن هو فرونسكي هذا ؟

- انه ابن الكونت ايفان فرونسكي .. وهو أنموذج بديع لشبيبة (بطرسبرج)، وقد عرفته في (تيفير) حيث كنت أؤدي الخدمة العسكرية .. وهو على جانب عظيم من الثراء والأناقة . وله صلات وثيقة بجميع الشخصيات المبرزة . ثم أنه طيب الخلق .. كريم المحتد .. عظيم الذكاء والمستقبل فسيح أمامه .

فقطب ليفين جبينه ولزم الصمت .. واستطرد اوبلونسكي :

- وقد جاء إلى موسكو بعد رحيلك .. فغرق إلى اذنيه في حب كاترين .. ولعلك تعرف أن امها .

فقلب ليفين شفتيه وقاطعه بقوله :

- معذرة .. إنني لا أعرف شيئاً .

فقال اوبلونسكي وهو يبتسم :

- رفه عنك .. لقد حدثتك بكل ما أعلم .. ولكني ما زلت أعتقد أن كفتك أرجح من كفة غريمك .

فأطرق ليفين برأسه .. ولم يجب .. وقال اوبلونسكي :

- والرأي عندي أن تطلب يدها حالاً .

وملأ كأس صديقه فصاح هذا :

– كلا .. كلا .. إنني لا أريد أن أتقدم إليها وأنا ثمل .

ثم استطرد : وأنت .. إنك وعدت مراراً بزيارتي لقضاء أيام في الصيد والقنص .. فلماذا لا تأتي في هذا الربيع ؟

* * *

أراد تبديل الحديث فقد شعر بالندم على أنه صارح اوبلونسكي بمكنون صدره .. وأحس بأن من الإهانة له ولعواطفه أن يكون له منافس مهما كان مركزه في المجتمع .

وأدرك اوبلونسكي ما يعتمل في نفس صديقه ، فأجاب وهو يبتسم :

– سأحضر لزيارتك في أحد الأيام لأرى كيف تعيش .

ثم أشعل لفافة تبغ وأردف :

– الحق يا صديقي .. ان النساء هن المحور الذي ندور جميعاً حوله .. وهن

– فيما يختص بي – مصدر متاعبي وشقائي .

فنظر إليه ليفين كمن يريد أن يقول :

– هل يمكن أن يكون هذا الدب المرح شقياً ؟

قال اوبلونسكي : معذرة أطلب نصيحتك يا ليفين .. هب أنك متزوج .. وتحب زوجتك .. ثم فتنت بإمرأة أخرى .

فقاطعه ليفين : معذرة .. إنني لا أفهمك .. كما لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن – بعد أن أكلت هنا وامتلأ بطني – أن أتسلل بعد قليل إلى حانوت أحد الخبازين لأسرق منه رغيفاً .

فلمعت عينا اوبلونسكي .. وقال :

– ولم لا ؟ أن رائحة الخبز الطازج تغري دائماً .. بيد أن هذا الجواب لا يحل المشكلة .. ان مثلك مثل الرجل الذي يمسك بالمسائل المستعصية بيده اليسرى .. ويلقي بها من فوق كتفه اليمنى .

أن إنكار الحقائق ليس جواباً .. فحدثني ماذا يجب أن أصنع .. أن زوجتي

قد فقدت فتنتها .. وأنا لا أزال ممتلئاً قوة وفتوة .. والرجل عادة لا يكاد يدور على عقبيه .. حتى يجد أن حبه لزوجته قد نضب أو أدركه الفتور .. ثم يحدث فجأة أن يعبر الحب طريقه .. فيجد نفسه حائراً لا يدري ما يصنع .

وتنهد في يأس وأردف : وأنا الآن أجد نفسي في هذه الحيرة ولا أدري ما أصنع .

فقال ليفين : لا تسرق الرغيف .

فانفجر اوبلونسكي ضاحكاً وقال :

— دع الدعابة يا ليفين . وتأمل الموقف .. هنا إمرأتان .. إحداهما تطالبك بحقها الطبيعي .. وهو الحب . ولكنك لا تستطيع أن تحبها ، والاخرى تضحي بنفسها من أجلك .. ولا تطالبك بشيء .. فماذا تفعل ؟ وأي المرأتين ترضى ؟ هذه هي المأساة .

— إذا أردت رأيي ، فإنني اصارحك بأنني لا أرى وجوداً لهذه المأساة ، ذلك لأن الحب على نوعين كما تعلم ، حب أفلطوني بريء ، وحب غريزي غير بريء . وبعض الرجال لا يفهمون إلا النوع الثاني ، وهؤلاء ليس من حقهم أن يتحدثوا عن وجود مأساة ، لأن ليس عليهم في الواقع إلا أن يقولوا للمرأة « شكراً لك على ما هيأت لنا من أسباب المتعة ، ووداعاً » ، وينتهي كل شيء.

« أما الحب الأفلاطوني ، فلا محل فيه للمأساة كذلك ، لأن كل شيء فيه ظاهر بريء واضح » .

فتنهد اوبلونسكي ، ولم يجد ما يقوله .

وساد الصمت بين الرجلين ، وشعرا فجأة رغم صداقتهما القديمة ، ورغم أن جلستهما معاً حول مائدة الطعام والشراب كانت جديرة بأن تقرب بينهما، وتوثق صداقتهما ، بأن كلا منهما غريب عن صاحبه بمشاعره ، وميوله وآرائه ، وبأن كليهما لا يستطيع إلا أن يفكر في شؤونه الخاصة دون شؤون زميله .

وقد حدث مراراً قبل ذلك ، أن أحس اوبلونسكي بمثل هذه الوحشة والعزلة بدلاً من الالفة التي ينشدها من تناول الطعام والشراب مع اصدقائه ،

وكان يعرف ماذا يجب عليه عمله في مثل هـذه الحالة ، فدعا الخادم ، ودفع الحساب .

* * *

مـــا كادت كاترين شرباتسكي تبلغ الثامنة عشرة من عمرها ، وتظهر في المجتمع حتى أصابت نجاحاً ، فاق كل ما توقعته امها ، اعجب بهـــا جميع فتيان موسكو الذين راقصوها ، ولاح في افق حياتها في الحال خطيبان محتملان ، هما ليفين ، والكونت فرونسكي .

وكان تردد ليفين على بيتها ، وهيامه الظاهر بها ، مدعاة لاهتمام والديها بأمر مستقبلها ، وفاتحة لسلسلة من المشاحنات بينهما ، ذلك لأن الأب كان يعطف على ليفين ، ولا يتمنى لابنته زوجاً خيراً منه ، أما الام فإنها لجأت بغريزتها النسوية إلى اللف والدوران ، فقالت : ان كاترين لا تزال دون سن الزواج ، وأن ليفين لم يبرهن على أنه جاد في نواياه ، وأن كاترين لا تحبه ، إلى غير ذلك من الأعذار ، ولم تقل له الحقيقة وهي أنها تريد لابنتها زوجاً أفضل من ليفين ، وانها لا تحب ليفين ولا تفهمه .

ولما رحل ليفين عن موسكو فجأة لم تكتم الام ارتياحها وشعورها بالفوز ، فقالت لزوجها :

ـ ألم أكن على حق ؟

ثم ظهر فرونسكي في الافق ، فزاد ارتياحها ، واشتد اصرارها على وجوب اختيار أفضل زوج لكاترين .

وكان من رأيها أنه لا مجال للمقارنة بين ليفين وفرونسكي ، فالأول غريب الأطوار ، شديد التبرم بالمجتمع ، تهمه أبقاره وخنازيره أكثر مما يحتمل أن تهمه زوجته ، وهي ان لم تغفر له كل هـــذه النقائص ، فإنها لا تستطيع أن تغفر له أنه ظل يتردد على ابنتها كل يوم خلال ستة أسابيع متوالية ، دون أن يحزم رأيه على أمر .

أمـا فرونسكي فقد كان في نظرها الشخص الكامل الذي تتوفر له جميع الصفات التي تجعل منه أفضل زوج لابنتها ، فهو واسع الغنى ، عريق الأصلاب ، يشغل وظيفة ضابط في حرس القيصر ، وأمامـه في السلك العسكري مستقبل فسيح ، ثم أنـه أنيق جميل الطلعة حلو الحديث ، وماذا تريد المرأة من زوجها أكثر من هذا ؟

وقـد لاحظت الام أن فرونسكي لا يكتم إعجابه بكاترين واهتمامه بها ، فهو لا يفارقهـا في الحفلات والسهرات التي تجمع بينهما ، ولا يراقص من الفتيات سواها ، ويزورها كلما سنحت الفرصة لزيارتها ، وقـد دار بينهما حديث ذات مساء ، أدركت منه الام أن الفتى جاد في نواياه ، ذلك أنه قال لكاترين ، أنه وأخاه قد تعودا النزول على إرادة والدتهما حتى صار من المستحيل عليهما أن يخطوا خطوة في أمر ذي بال دون الاستئناس برأيها ، وأردف : « وأنا الآن انتظر قدوم والدتي من بطرسبرج بفروغ الصبر » .

وقد نقلت كاترين هذه العبارات إلى امها دون أن تحملها معنى خاصاً ، أما الام فإنها رتبت عليها الأحلام والأماني، ولذلك كانت عودة ليفين مدعاة لقلقها وحيرتها، فقد أشفقت أن يؤدي وجوده إلى ارتباكات، هي الآن في غنى عنها.

وسألت ابنتها وهما في طريقهما إلى البيت :

ــ هل عاد ليفين إلى موسكو منذ وقت طويل ؟

فأجابت كاترين : إنه عاد اليوم فقط يا اماه .

وكانت الأميرة شرباتسكي تعلم أن ابنتها تعطف على ليفين كصديق على الأقل ، فقالت لها :

ــ أريد أن أقول لك شيئاً يا كاترين .

فقاطعتها الفتاة ، وقد احمرت وجنتاها :

ــ أرجوك ألا تقولي شيئاً يا اماه ، إنني أفهم غرضك .

ــ أريد أن أقول لك فقط انك وقد شجعت أحد الرجلين ، فيجب .

* * *

أحست كاترين في الفترة بين العشاء وبداية السهرة بما يشعر به الجندي قبيل المعركة .

كانت تعلم أن الشابين سيلتقيان عندها في ذلك المساء لأول مرة ، وأن على لقائهما يتوقف مصيرها ، فراحت تتخيل كلاً منهما على انفراد ، ثم تتخيلهما معاً، ووجدت أنها لا تستطيع أن تفكر في ليفين ، وفي صداقتهما الطويلة ، دون أن تشعر بالعطف والحنـــان ، ولا أن تفكر في فرونسكي ، دون أن تحس بقلق يخالطه شعور بالزيف ، ولكن المستقبل مع أولهما محوط بالغموض ، ومع الثاني يبشر بالسعادة والرفاهية والنعيم .

ونظرت كاترين إلى نفسها في المرآة ، وهي ترتدي ثياب السهرة ، وسرها أن تجد أنها في أفضل حالاتها، وأنها تسيطر على كل قواها ومواهبها، وطمأنينتها وهي لم تشعر قط بحاجتها إلى هذه السيطرة كما شعرت في ذلك اليوم .

ومضت إلى قاعة الاستقبال ، ومـــا كادت تدخلها حتى أعلن كبير الخدم قدوم ميشيل ليفين .

وهنا خفق قلبها بشدة ، وحانت منها التفاتة إلى مرآة على الجدار ، فهالها شحوب وجهها .

كانت على يقين من أنه إنما بكر بالحضور لينفرد بها ويطلب يدها .

وعندئذ ، وعندئذ فقط أحست بأن قرارها لا يعنيها وحدها ، وانها عمـــا قليل ستكون سبباً في إيلام رجل يحبها ، وتعطف عليه .

ولكن لا بدّ مما ليس منه بد .

* * *

ودخل ليفين ، فنظرت في عينيه ، تضرع إليه أن يعفيها من قسوة الموقف.

وشدّ الفتى على يدها وهو يقول :

ـــ احسب انني قد بكرت في الحضور .

وأجـــال البصر حوله ، ووجد الغرفة خالية .. وليس هناك ما يمنعه من التحدث اليها .

قال وهو يتجنب النظر إليها حتى لا تخونه شجاعته :

– والواقع ، انني اردت ان اجدك بمفردك .

فقالت دون ان تعرف ما هي قائلة :

– ستأتي والدتي بعد بضع دقائق ، انها كانت متعبة أمس .

فنظر إليها ، واحمر وجهها ، وصمتت .

– لقد قلت لك انني لا أعلم هل تطول اقامتي في موسكو أو لا تطول ، وان الأمر متوقف عليك ،

فأطرقت برأسها ، وعضت على شفتها ، فقال بلسان متلعثم :

– نعم ، ان الأمر متوقف عليك ، اريد ان اقول ، اريد ان اقول انني انما جئت لكي ، انني اسألك ، هل تريدين ان تكوني زوجتي ؟ .

وكف عن الكلام ، ثم شعر بأنه قطع أهم المراحل وأشقها ، فأطمئن قليلا ، ونظر إليها .

وراحت كاترين تلتقط أنفاسها بعنف ولا تنظر اليه .

لم تكن تتوقع قط ان يترك اعترافه في نفسها كل هذا التأثير ويشعرها بكل هذه السعادة .

ولكن هذا التأثير لم يدم الا لحظة ، ثم تذكرت فرونسكي ، فرفعت الى ليفين عينين صافيتين صريحتين ، وغمغمت :

معذرة ، ان هذا مستحيل .

ما كان اقربها اليه ، وألزمها لحياته منذ لحظة !!. وما ابعدها عنه الآن !!

غمغم دون ان ينظر اليها : كان يجب ان اتوقع هذا ، واحنى قامته وتحول لينصرف .

* * *

وفي هذه اللحظة أقبلت الاميرة شرباتسكي ، ورأت الشابين على انفراد ، فارتسمت في عينيها نظرة ذعر ، ثم لاحظت اطراقهما ، فاطمأنت وابتسمت .

وحياها ليفين بإحناء قامته ، ولم ينطق بكلمة ، فدعته الى الجلوس وراحت تسأله عن حياته في الريف ،وهو يجيبها بعبارات مقتضبة ، الى ان بدأ المدعوون في القدوم ، وفي طليعتهم الكونتس نوردسون .

كانت هذه الكونتس امرأة نحيفة هزيلة ،عصبية المزاج ، تحب كاترين حباً جماً ، وكان من رأيها ان كاترين لن توفق الى زوج يسعدها أفضل من فرونسكي ومن هنــا نشأت كراهتها لليفين ، ورغبتها في الهزوء به وتحقيره ، كلما وجدت الى ذلك سبيلاً ، كانت تقول :

– ليس احب الي من ان اراه ، وهو ينظر الي من عليـــائه ، ويكف عن حديثه اللبق ، لاعتقاده بأن ذكائي يعجز عن فهمه ،

انني اجد في كراهيته لي كثيراً من السرور والتسلية .

والواقع ان ليفين كان يمقتها ويحتقرها للصفة الوحيدة التي كانت تفخر بها وهي رفاهتها ، واحتقارها كل شيء عادي في الحياة ،

هتفت به ، عندما وقع بصرها عليه :

انت هنا يا مسيو ليفين !! كنت أظن انك هجرت (بابل) الى الأبد .

وكان ليفين ، في حديث سابق مع الكونتس نوردسون ، قـد دافع بحرارة عن الحياة في الريف ، وشبه موسكو ببابل .

وقد ادرك ان الكونتس ترمي الى السخرية به فأجاب :

ان من دواعي خيلائي ان كل كلمة انطق بها ، تعلق بذهن سيدتي الكونتس

واشاح بوجهه نحو الباب ، وحينئذ وقع بصره على ضابط انيق يتقدم بخطى ثابتة ، فقال لنفسه :

لابد ان يكون هذا هو فرونسكي .

ونظر الى كاترين ، فرأى وجهها يتهلل بشراً ، وايقن أن القادم لا بد ان فرونسكي ، وان الفتاة تحبه بغير شك .

وكان في نيته ان يرحل في الحال ، ولكنه عدل عن ذلك بدافع الفضول الى

معرفة المزيد من امر غريمه .

* * *

كان الضابط الشاب معتدل القـامة ، جميل الطلعة ، تدل تقاطيع وجهه ، وبساطة ثيابه ، على الصراحة ، والاناقة في غير تـكلف ولا تصنع .

وقد شد على يد الاميرة شرباتسكي في لطف وادب ، وبادل كاترين التحيـة بابتسامة حلوة ، واحنى قامته للكونتس نوردسون باحترام ، ثم جلس دون ان يفطن الى وجود ليفين ، الذي ظل ينظر اليه ، ولا يحول عينيه عنه .

قالت الأميرة تحدث فرونسكي :

– دعني اقدمك إلى صديقنا ميشيل ليفين .

وقدمته في ذات الوقت إلى ليفين بقولها :

– الكونت اليكسيس فرونسكي .

ونهض فرونسكي في الحال ، وبسط يـده إلى ليفين وهو يقول وعلى شفتيه ابتسامة هادئة :

– لقد كان المفروض أن نجتمع قبل الآن علىمائدة الأميرة، ولكنك رحلت من موسكو فجأة ، هـل تقيم دائماً في الريف ؟ يخيل إلى أن الحياة الريفية تدعو إلى السأم . لا سيا في فصل الشتاء .

فأجاب ليفين مقتضباً :

– كلا ، ان من يجد لديه عملاً في الريف لا يشعر قط بالسأم .

فقال فرونسكي : إنني أحب الريف كثيراً .

فقالت الكونتس نوردسون :

– ولكني لا اظنك ترضاه مقاماً لك دائماً يا كونت .

– لا أدري ، إنني لم اجرب طول الإقامة في الريف ، ولكني لم أشعر قط بالحنين إلى الريف الروسي ، إلا في العام الماضي ، حين كنت أقضي الشتاء مـع والدتي في مدينة (نيس) .

وكان يوجه حديثه إلى كاترين تارة ، وإلى ليفين تارة اخرى ، والتقت عينا كاترين بعيني (ليفين) ، وأحست الفتاة بالشفقة والرثاء له وقالت نظرتها :

– إنني سعيدة فاعف عني ، إذا كان في استطاعتك أن تعفو .

وأجابها ليفين بعينيه :

– إنني أمقت العالم كله ، وأمقتك ، وأمقت نفسي .

– ٣ –

الحفلة الساهرة

في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي التقى فرونسكي في محطة مرسكو باوبلونسكي ، الذي كان يتوقع قدوم اخته في القطار ، كما كان الأول ينتظر قدوم والدته .

وبعد أن تصافح الرجلان سأله فرونسكي :

– أين كنت ليلة أمس ، فإني لم أجدك عند آل شرباتسكي ؟

– انصرفت مبكراً إلى منزلي .

ثم صعده بعينيه وابتسم ، وردد العبارة التي قالها لليفين ، وبذات اللهجة :

– إنني أعرف الجواد الكريم من بعض خصاله ، وأعرف العاشق من نظراته .

فارتسمت على شفتي فرونسكي ابتسامة دلت على أنه فهم مغزى العبارة ، ولكنه عمد إلى تغيير مجرى الحديث فسأل :

– وأنت ، ماذا جئت تصنع هنا ؟

– أنا ؟ إنني جئت لاستقبال سيدة حسناء .

فبهت فرونسكي ، وهتف في دهشة : سيدة حسناء ؟

– لا تسيء بي الظن بهذه السرعة يا صديقي ، إني جئت لاستقبال شقيقتي أنّا.

– آه ، تعني أنّا كارنينا .

– هل تعرفها ؟

فأجاب فرونسكي وهو يحاول أن يتذكر :

– ربما ، إنني لا أذكر تماماً .

– ولكنك بغير شك تعرف زوجها اليكسيس كارنين ، أنه ذائع الصيت ، وجميع الناس يعرفونه .

– نعم ، إنني أعرف اسمه ، وصورته ، واعلم أنه ذو شخصية بارزة ومكانة محترمة .

– وبهذه المناسبة ، هل تعرفت ليلة أمس إلى صديقي ليفين ؟

فأجاب فرونسكي : طبعاً ، ولكن لسوء الحظ انصرف مبكراً .

– أنه شاب ذكي ، أليس كذلك ؟

– أنا لا أعرفه حق المعرفة ، ولكن خيل لي في الفترة القصيرة التي قضيتها معه أمس ، أنه شاب غريب الأطوار سريع الانفعال .

– انك لم تنصفه يا صديقي ، فهو دمث الخلق غالباً ، وأمين ومخلص دائماً ، ولكني أعتقد أنه كان لديه من الأسباب أمس ، ما يحمله على أن يكون سعيداً جداً ، أو شقياً جداً .

فكف فرونسكي عن السير وسأل في صراحة :

– ماذا تعني ؟ هل تعتقد انه ذهب الى بيت آل شرياتسكي امس ، ليطلب يد الآنسة كاترين ؟

فأجاب اوبلونسكي : ربما ، لقد خيل الي امس انه ينوي ذلك ، وما دام قد انصرف مبكراً ، وهو في حالة تأثر وانفعال ، فمعنى ذلك انه ، مسكين ، انه يحبها منذ امد طويل ، واني آسف له .

فقال فرنسكي وهو يتنفس ملء رئتيه :

ولكني اظن انها جديرة بزوج افضل منـــه ، ومهما يكن من امر فأنني لا اعرفه حق المعرفة كما قلت لك .. آه ، هوذا القطار قد أقبل .

والواقع ، انهما سمعا في هـــذه اللحظة صفيراً ثاقباً ثم اهتزت الارض تحت اقدامهما ، وتهادى القطار في المحطة ببطء واخذ بعض المسافرين في النزول قبـل ان يقف القطار تماماً ، وفجأة سمع ضابطاً من ضباط الحرس القيصري يقول له :

– ان الكونتس فرونسكي في هذه المركبة .

وقصد فرونسكي الى المركبة التي اومأ اليها الضابط وهم بالصعود إليـــها، ثم رأى سيدة تريد الهبوط ، فأفسح لها السبيل .

وقد أدرك من النظرة الاولى ، الى انها سيدة تنتمي الى ارقى طبقة في الهيئة الاجتماعية ، فاعتذر لها عن وقوفه في طريقها ، وانتظر حتى هبطت ، ثم صعد الى المركبة ولكنه اضطر ان ينظر الى تلك السيدة مرة اخرى ليس فقط لانهـا على جانب عظيم من الجمال ، او لانها ارشق امرأة وقع عليها بصره رغم بساطة ثيابها ، وانما لأنه رأى وجهها الفاتن آية عجيبة من آيات الدعة واللطف .

واتفق في تلك اللحظة انها نظرت وراءهـا ، فوقع بصرهـــا عليه ولمعت عيناها كأنها عرفته .

ثم اجـالت الطرف بين الجموع المحتشدة على افريز المحطـة كأنها تبحث عن شخص بعينه .

* * *

دخل فرونسكي المركبة ، وابصرت به امـــه وبسطت اليه يدها الهزيلة فقبلها ، وتناولت الام وجه ابنها بين يديها ، وقبلت جبينه بلطف ، وقالت له:

– هل تسلمت برقيتي !! وهل انت بخير !! شكراً لله .

فقال وهو يجلس بجانبها : هل كانت رحلة موفقة ؟

ولم يسمع جواب امه ، لأنه كان يصغي بالرغم منه الى صوت آخر عند باب المركبة خيل اليه انه صوت السيدة التي صادفها منذ لحظة .

كانت تلك السيدة تقول :

– الى اللقاء يا ايفان بتروفتش ، وارجوك ان صادفت اخي ان تبعث بـــه الى هنـــا .

وعادت الى المركبة ، فسألتها الكونتس فرونسكي :

– هل وجدت اخاك ؟

وعندئذ فطن فرونسكي الى ان هذه السيدة لا بد ان تكون أنـــا كارنينـــا شقيقة اوبلونسكي .

فقال وهو ينهض واقفاً : ان اخاك هنا يا سيدتي ، ومعذرة إذا لم أكن قـــد عرفتك في التو واللحظة .

وأحنى قامته باحترام ، فقالت وعلى شفتيها ابتسامة فاتنة كنظراتها :

بل اعتقد انه كان يجب عليّ ان اعرفك قبل ان تعرفني ، فـــإن والدتك لم تحدثني اثناء الطريق إلا عنك ، ولكن أين اخي ؟

فقالت الكونتس العجوز لابنها : اذهب وادعه يا اليكسيس .

فخرج فرونسكي من المركبة ، لاستدعاء اوبلونسكي .

ولم تنتظر انا كارنينا حـــتى يحضر اخوها ، فغادرت المركبة بخطوات ثابتة سريعة ، ومـــا كادت ترى اوبلونسكي ، حتى احاطت عنقه بساعدها وقبلت خده برشاقة اثارت اعجاب فرونسكي ، فـــلم يحول عينيه عنها ، وظل يبتسم دون ان يدري لماذا يبتسم .

ولكنه ما لبث أن تذكر ان والدته تنتظره في المركبة فقصد إليها .

قالت الكونتس : انهـــا ظريفة جداً ، أليست كذلك ؟ وقد لذّ لي حديثها أثناء الطريق ، فلم أشعر بسأم أو ملالة .

ثم أردفت بالفرنسية : لقد قيل لي انـــك وقعت على فتاة من اكرم الأسر ، فدعني اهنئك يا ولدي .

فأجابها ببرود : انني لا افهم ما تعنين يا اماه .

وفي هذه اللحظة عادت أنـّا كارنينا لكي تودع الكونتس .

وقالت لها في لطف : ها انت قد قابلت ولدك يا سيدتي الكونتس، كما انني قابلت اخي ، ومن حسن الحظ اننا وصلنا في الوقت المناسب ، حين فرغت جعبتي من القصص ، وكدت لا اعرف كيف ادفع عنك السأم .

فأجابت الكونتس وهي تشد على يدها :

– كلا ، كلا يا ابنتي ، انني استطيع ان اطوّف حول العالم معك دون أن اشعر بسأم ، ولكنني ارجوك ان لا تقلقي من اجل ولدك ، وان تهيئي نفسك دائماً لمثل هذا الفراق ، والواقع أيّ ام لا ترغمها الظروف على فراق ابنها ؟

فصمتت انا كارنينا ، وظلت عيناها تبتسمان .

وقالت الكونتس لولدها موضحة :

– ان لأنا كارنينا طفلاً اظنه في الثامنة من عمره ، وقد كانت شديدة القلق والانزعاج من اجله ، لأنها لم تفارقه قبل الآن .

وقالت أنّا : دعيني اكرر لك شكري على ما لقيت من كرم خلقك ، وسعة صدرك يا سيدتي الكونتس ، وإلى اللقاء .

– إلى اللقاء يا عزيزتي ، اسمحي لي ان اقبل وجهك الجميل ، انني امرأة متقدمة في السن ، لا اعرف الخداع ، واني اقول لك في صراحة انك اذهلتني وخلبت لبي بظرفك ، ورقة حديثك .

فاحمر وجه أنا كارنينا ، وانحنت إلى الأمام لتسمح للكونتس بتقبيلها ، ثم شدت على يد فرونسكي ، وانصرفت من المركبة وهي تمشي بنشاط ورشاقة طبيعيين .

وغمغمت الكونتس : انها امرأة فاتنة حقاً .

وكان ذلك أيضاً رأي ولدها ، فإنه ظل ينظر إلى انا كارنينا ويتبع قامتها الرشيقة ببصره حتى غادرت المركبة .

ثم رآها من النافذة ، وهي تتحدث إلى أخيها بجدة حديثاً أيقن فرونسكي أنه لا يتصل به من قريب أو بعيد ، فأشعره ذلك بشيء من الضيق والحرج .

وتحول الشاب إلى امـــه اخيراً وقال : لننصرف الآن يا اماه ، فقد خفت وطأة الزحام .

وتأبط ساعدها ، ولكنهما ما كادا يبرحان المركبة حتى مرّ بهما بعض الناس وبينهم ناظر المحطة وهم يهرولون ، وعلى وجوههم علامات القلق والفزع .

وبعد قليل علم الجميع أن القطار دهس أحد الحراس ، وأن زوجته قد جنت لفقده ، وأن المسكين كان يعول اسرة كبيرة .

وعندئذ هتف (أنّا) تقول :

ـ ألا يمكن عمل شيء من أجل هذه الاسرة الشقية ؟

فرمقها فرونسكي بنظرة سريعة ثم ابتعد وهو يقول :

ـ صبراً لحظة يا امي .

وبعد دقائق نسى (اوبلونسكي) الحادث وراح يتحدث إلى اخته عن الملاهي والمسارح ، وعن مغنية جديدة تنتظرها موسكو بفروغ صبر ، ولمـــا عاد (فرونسكي) من غيبته القصيرة تأبط ذراع امه ، وسار بها في المقدمة ، وتبعها اوبلونسكي وشقيقته .

ولكنهم مـا كادوا يبلغون الباب الخارجي حتى لحق بهم ناظر المحطة وسأل فرونسكي :

ـ انـــك أعطيت مساعدي مائتي روبل ، فهلا تكرمت بذكر الغرض من هذه الهبة ؟

ـ انها لأرملة القتيل ، وهل الأمر يحتاج إلى سؤال .

ـ وضغط اوبلونسكي على ساعد اخته وهو يقول :

ـ ما أطيب قلبه .

وكانت (انا) بادية القلق من أثر الحادثة ، فراح شقيقها يهون عليها الأمر ، فهزت رأسها وقالت :

ـ لقد حضرت بناء على دعوتك فأنبئني ماذا حدث بينك وبين (داريا) ؟

فسرد لها القصة في أثناء الطريق حتى وصلا إلى المنزل .

* * *

قضت (انا) نهارها في البيت لم تفارقه ، فلما أقبل المساء كتبت إلى أخيها تدعوه لتناول الطعام في منزله ، وأعلمته انها قد وفقت في مهمتها ، وأنها تمكنت من إزالة الخلاف الذي نشب بينه وبين زوجته .

وتناول (اوبلونسكي) العشاء مع اخته وزوجته وأولاده ، وبادلته داريا الحديث ، وانعدمت فكرة الفراق والطلاق ، بفضل جهود (انا) وتأثيرها .

وجاءت (كاترين) تزور (انا) بعد العشاء ، ولم تكن تعرفها إلا قليلاً ، ولكنها سمعت الكثير عن فتنتها وقوة شخصيتها ، فلما اجتمعت إليها وجدتها فوق كل اطراء ومديح .

وكانت (داريا) قد انسحبت إلى غرفتها، وتبعها زوجها بإشارة من شقيقته، فلما خلا المكان للصديقتين قالت كاترين :

– اننا سنقيم حفلة راقصة في الاسبوع القادم ، ويسرني ان تساهمي فيها ، حيث تجدين الكثير من ضروب التسلية .

وترددت (انا) في قبول الدعوة ، مخافة ان تضجر او يضيق صدرها ، فهتفت كاترين تقول :

– كيف تشعر مثلك بالضجر في حفلة ستكون هي كوكبها .

وقبلت (انا) الدعوة وهي تقول :

– أعلم لماذا تريدين ان أساهم في هذه الحفلة ، فأنت تتوقعين نتيجة سارة ، وتريدين أن يساهم الجميع في سرورك .

– هذه هي الحقيقة ، كيف عرفت ؟

فحدثتها (انا) كيف تعرفت على (فرونسكي) بواسطة امه وما قاله لها شقيقها عنه ، وكيف انها قابلته في المحطة ، وكيف بالغت امه في اطرائه ومدح خصله .

ولم تحدثها عن المانتي روبل التي تبرع بها لأرملة الحارس، لأنها استشعرت انه إنما فعل ذلك لإرضائها ، وهو ما لا يجب أن يكون .

وهزت رأسها بغتة لتطرد خاطراً يضايقها ، وقالت وهي تنهض :

– لقد أبطأ شقيقي .

ثم بسطت ساعديها للأطفال ، وصاحت فيهم بلهجة طروبة ووجهها ظافح بالسعادة والحنان .

– من الذي سيقبل عمته أولاً ؟

فهتف الجميع بصوت واحد : انا ، انا .

وهجموا عليها فاحتضنتهم جميعاً ، وسقطت معهم إلى الأرض .

* * *

أشرقت شمس (انا) في الحفلة التي أقامتها كاترين، وطغت رشاقتها الطبيعية على ثوبها المخملي الأسود ، فكان الثوب منها كالإطار من الصورة الجميلة يكتسب منها رونقاً ولا يزيدها جمالاً .

ووقفت بين المدعوين فخلبت العقول ، وبرزت على كل إمرأة في الحفلة ببساطتها وفتنتها ومرحها وحيويتها .

وراحت تتحدث إلى استاذ للرقص يدعى كورسونسكي لما اقتربت منها (كاترين) فعبرت لها (انا) عن إعجابها بهندامها ، وقال كورسونسكي :

– ان كاترين أفضل تلميذاتي جميعاً ، ان الموسيقى تعزف يا انا كارنينا أفلا ترقصين ؟

فقالت : إني لا أرقص حين استطيع الإعتذار .

فقال الاستاذ : ليس يصح أن تعتذري الليلة .

وفي هذه اللحظة أقبل فرونسكي ، فقالت أنا :

– إذا كان الأمر كما تقول ، فلنرقص .

ووضعت يدها على كتف الاستاذ بسرعة ، دون أن تحفل بفرونسكي الذي حياها باحناء قامته .

ولاحظت كاترين تجاهلها لتحية فرونسكي ، فدهشت ، بينا اقترب هـذا منها يحييها ويعتذر لانقطاعه عن زيارتها طيلة الاسبوع المنصرم .

وتوقعت أن يدعوها لمراقصته فلم يفعل ، ثم فطن إلى هذا الواجب فدعاها ، ورمقته كاترين بنظرة عميقة استشعرت من ورائها انـــه لا يبادلها حباً بحب وغراماً بغرام .

ولم يتحدث الشاب إلى كاترين اثناء الرقص بما كانت تنتظر ان يتحدث اليها به من أمر الخطة المنتظرة ، والزواج المقبل ، ثم تخيلت انه يرجيء مفاتحتهـا في هذا الموضوع الى رقصة (الفالس) الكبرى وهي آخر الرقصات .

وتنبهت كاترين لما توقفت عن الرقص في اواخر الحفلة ، بعد ان انهكهـــا التعب ، ووقفت تراقب الراقصين والراقصات ، الى ان (أنا) كانت مرحـــة باسمة ، متألقة العينين ، تنم نظراتها وتقاطيع وجههـا عن نشوة الظفر والشعور بالاثر العميق الذي احدثته فتنتها ورشاقتهـــا وشخصيتها القوية في نفوس الذين يحيطون بهـا .

وسألت كاترين نفسها : ما الباعث على هذه النشوة والسعادة ؟ اهو تأثيرها في الحفلة ، ام هو شخص بعينه .

وتنبهت فجأة الى الشخص الذي يراقص (أنـّا) واحست بقلبها يكف عن الحركة .

كانت (أنـّا) تراقص فرونسكي ، وهو يتحدث اليهـا بصوت خافت ، وعلى وجهه آيات المذلة والتوسل ، وفي عينيه نظرة خضوع وتهيب .

وكانت (أنـّا) تنظر اليه ، وفي عينيهـــا سرور ظاهر ، وابتسامة تطفر منها السعادة .

وأحست كاترين كأن سحابة كثيفة قد غشيت عينيها ، ولما صار موعـــد رقصة (الفالس) ولم يبارح فرونسكي مكانه بالقرب من (أنـّا) ، ولم يتقدم

لدعوتها للرقص ، استولى عليها مزيج من اليـــأس والذعر ، بعد ان اعتذرت لجميع الذين طلبوا مراقصتها ، ظناً منها ان فرونسكي سيخصها بهذه الرقصة .

ورأت ان لا سبيل الى تجنب الخزي الذي سوف تتعرض له ، الا بمغـادرة المكان بحجة المرض ، ولكنهـــا لم تقو على ذلك وتهـــالكت على مقعد في احد الاركان .

ولحظت الكونتس نوردسون انهيار كاترين وانفرادها وحدها ، فاعتذرت عن مراقصة استاذ الرقص ، وطلبت منه ان يراقص كاترين فأنقذت الموقف .

ووقع بصر كاترين على أنـّا كارنينا وفرونسكي وهما يرقصان معاً ، وزاد يقينها من انها قد فشلت .

كانا كأنهما في واد آخر ، وكأن المكان لا يضم احداً سواهما ، وقد بدت على فرونسكي مسحة من الحـيرة والخضوع ، كتلك التي تبدو على الكلب الذكي حين يشعر بأنه اذنب .

كان اذا ابتسمت انـّا ،شاع الابتسام على وجهه،واذا تجهمت تجهم وعبس.

واحست كاترين بقوة قاهرة ، تجذب بصرها الى وجه أنا ، ولم يسعها إلا ان تعجب بها ، وإلا ان تعترف لها بالفتنة رغم بساطة ثوبها ، ولكنها فتنـــة مخيفة ، ممزوجة بشيء كثير من القسوة .

وكلما زاد إعجابها بأنـــا ، زاد كذلك شعورها باليأس والفشل ، وانعكس هـــذا الشعور على مرآة وجهها ، حتى كاد فرونسكي ألا يعرفها ، حين قادته قدماه إلى حيث كانت .

وأراد أن يقول لها أي شيء فقال : يا لها من حفلة باهرة ؟

فأجابت : نعم .

وفرق الراقصون بينهما .

وصمتت انغام الموسيقى أخـيراً ، وانفرط عقد الراقصين ، وجلس بعضهم يلهث من التعب ، ونظرت كاترين إلى حيث كانت انا كارنينا، فوجدتها واقفة تبتسم بين كورسونسكي وفرونسكي .

قالت لنفسها ، وهي ترقب بريق عينيها ، وحركات يديها :

— نعم ، ان في جمالها شيئاً غريباً ، شيطانياً .

ولم يكن في نيـة انـّا كارنينا أن تبقى لتتناول طعام العشاء مع المدعوين ، فقال كورسونسكي ليغريها بالبقاء :

— إنني ابتكرت رقصة جديدة يا انـّا كارنينا ، وبودي أن تشتركي فيهـا بعد العشاء .

فأجابت وهي تبتسم : كلا ، إنني سأنصرف .

وأيقن كورسونسكي من لهجتها الحازمة ، وبالرغم من ابتسامتها انها مصممة على الإنصراف .

واستطردت أنـّا : لقد رقصت الليلة في موسكو ، اكثر ممـا رقصت طيلة الشتاء في بطرسبرج ، ثم عليّ أن استريح وأتأهب للسفر .

فهتف فرونسكي : هل ترحلين غداً حقاً ؟

فأجابت : نعم .

ورمقته بنظرة سريعة ، كأنما أدهشتها جرأته ، وأحس فرونسكي بنظرتها تنفذ إلى أعماقه ، وتشعل النار في قلبه .

— ٤ —

الحب

ما كاد يتحرك القطار حتى تهالكت (انا) فوق مقعدها وغمغمت تقول :

— لقد انتهى كل شيء ، فالحمد لله ، غـداً أرى ولدي وزوجي ، وأعود إلى حياتي العادية السابقة .

حاولت أن تطالع كتاباً في أثناء الرحلة ، ولكنها لم توفق فقد كانت افكارها لا تزال عالقة بموسكو ، وبالأثر الذي تركته الزيارة في نفسها .

فكرت في الحفلة الراقصة ، وفي فرونسكي ونظراته الجائعة الخاشعة ، وفكرت انها لم تفعل ما يخجل منه .

ولكنها كانت تشعر في قرارة نفسها بشيء من القلق ، راحت تحاول التخفيف من شأنه والإزدراء به .

ولما بلغ القطار المحطة التالية ، غادرت المركبة تريد تنسم الهواء النقي ، فتلقفتها الريح العاتية الثلجية وعصفت بثوبها ، وصفرت في اذنيها ولكنها لم تعبأ بشيء ، فلما صفر القطار عادت إلى المركبة ، ولكنها مـا كادت تغلق بابها ، وتدور على عقبيها حتى فتح الباب مرة اخرى ، وهبت منه لفحة من الهواء كادت تحمل قبعتها معها فاستدارت فرأت فرونسكي أمامها .

وحياها الضابط الشاب باحناء قامته وسألها إن كانت في حاجة إلى شيء ، أو كان في استطاعته أن يقدم إليها خدمة مـا ، فنظرت إليه طويلاً ولم تجبه ، ورأت في عينيه نظرة الافتتان وعلى وجهه مسحة الخشوع اللتين رأتها في الليلة السابقة ، وتركتا في نفسها أعمق الأثر .

كانت تؤكد لنفسها طيلة الليلة الماضية ، بل ومنذ بضع دقائق ان مـا بينها وبين فرونسكي لا يمكن أن يختلف عمـا بينها وبين مئات الشباب الذين قابلتهم في كل مكان ، وانها لن تسمح لنفسها بالتفكير فيه ، إلا كمـا تفكر في شخص قابلته عرضاً في إحـدى الحفلات ، ومرّ في حياتها مرور عابر السبيل ، وانتهى مـا بينها وبينه — إن كان بينهما شيء على الإطلاق — بانتهاء الحفلة التي جمعت بينهما .

بيد انها مـا كادت تراه الآن ، حتى أحست في الحال بمزيج من السعادة والخيلاء .

ولم تكن بحاجة لأن تسأله ، عن سبب وجوده في القطار ، لأنها عرفت السبب ، وشعرت بأنه إنما سافر معها ليكون حيث تكون .

قالت : لم أكن أعلم انك تعتزم الرحيل إلى بطرسبرغ ، فلماذا ترحل ؟
وأضاء وجهها بسعادة لم تستطع كتمانها .
فأجاب وهو ينظر في عينيها : لماذا أرحل إلى بطرسبرغ ؟ أنت تعلمين إنني أرحل لأكون معك حيث تكونين .
وأردف بعد قليل كأنه يحدث نفسه :
— ليس في طاقتي أن أفعل غير ذلك .
ولم تجبه في التو واللحظة ، ورأى الشاب على وجهها أثر المعركة التي قـامت في نفسها .
وقال لها في خشوع : معذرة ، إذا كانت كلماتي قد اساءتك .
فأجابت : ان مـــا قلته ليس صواباً ، ويجب أن تنساه ، كما سأحاول أن أنساه .
فهتف على الفور : كلا ، إنني لن أنساه ، وليس في مقدوري أن أنسى أية كلمة من كلماتك ، أو أية حركة من حركاتك .
فصاحت ، وهي تحاول عبثاً أن تكسب وجهها الفاتن شيئاً من الصلابة : كفى ، كفى .
وأسرعت إلى مكانها في المركبة ، وجلست تفكر فيما حدث .
ولم تستطع أن تذكر كلماته أو كلماتها ، ولكنها أحست بالغريزة بأن هـذا الحديث القصير قد قرّب بينهما ، وسرها ذلك وأزعجها في ذات الوقت .
وقضت الليلة كله ، وهي تفكر وتسبح في عـــالم الخيال ، ثم غلبها التعب والنعاس فأغمضت عينيها ، فلما أفاقت من نومها كان القطار قـــد وصل إلى بطرسبورغ .
وأقبـل زوجها يرحب بقدمها ، فسألته عن فتاها الصغير (سيرج) فأنبأها انه بخير .

* * *

وكذلك لم يغمض لفرونسكي جفن في تلك الليلة ، فقضى الساعات الطويلة جالساً ينظر أمامه ولا يرى شيئاً .

كان يشعر بأنه اسعد مخلوق على الأرض ، ليس لأنه كان واثقاً من انه ترك اثراً في نفس (انا) ، ولكن لأن الأثر الذي تركته هي في نفسه اشعره بسعادة وخيلاء لا حدّ لها .

لقد تركزت افكاره وحياته في نقطة واحدة، هي ان يراها ويسمع صوتها. وقد سره انه كان صريحاً معها ، واشعرها بميله لها .

ولما وقف القطار في المحطة غادر المركبة وهو يمني نفسه بأن يراها ، ومن يدري فقد تنظر إليه ، وقد تبتسم في وجهه .

ولما شاهد زوجها مقبلاً لاستقبالها، والموظفون يفسحون له الطريق، وشاهد يــــده الغليظة تمسك بيدها الصغيرة ، تأكد على التو انها متزوجة ، وكان قبلاً يرفض الإيمان بهذا الإحتمال .

وكان كلما اطال النظر في الزوج زاد امتعاضه واشمئزازه منه ، وأما (انا) فقد ظلت كمهده بها فاتنة رشيقة نشيطة .

ولما شاهد استقبالها له تأكد انها لا تحبه .

واقترب منها يحييها، فأجابته شاكرة، ولاحظ البريق الخاطف الذي ومض في عينيها حين تحدثت إليه ، واحس بالسعادة تنفجر من قلبه .

وقدمته لزوجها : الكونت فرونسكي .

فقال كارنين : اظن اننا تقابلنا قبلاً يا كونت .

وهتف يقول لزوجته : ارى انك سافرت مع الام وعدت مع الابن .

وتحول يريد الانفراد بزوجته ، ولكن فرونسكي ثبت مكانه وقال محدثاً (انا) :

– امل ان اتشرف بزيارتكم قريباً .

فأجابه كارنين ببرود :

– يسرنا ان تزورنا ، اننا نستقبل الزائرين في يوم الاثنين من كل اسبوع .

وانصرف فرونسكي مبتعداً ، وقال كارنين لأنا :
– سأتركك الآن وامضي لعملي يا انا ، كم انا سعيد بعودتك ، لأنني لن اتناول الطعام بمفردي بعد الآن .
ولما وصلت إلى منزلها كان (سيرج) ولدها اول من استقبلها فاحتوته بين ساعديها وقبلته مئات القبلات .
وشرعت بعد ذلك في ترتيب ثيابها ، واندمجت في وسط الجو الجديد، وخبا اللهب الذي كان يتألق في عينيها حين كانت في موسكو ، وانطفأ الشعاع الذي كان يضيء وجهها .

* * *

سقطت (كاترين) مريضة قبل نهاية فصل الشتاء فاستدعى اهلها احد كبار الأطباء ، لفحصها وتشخيص دائها ، ووصف العلاج اللازم لها .
وكانت الفتاة في حالة يرثى له ، شحب وجهها وهزل بدنها ، وزاد حالها سوءاً باقتراب الربيع ، وبعد أن فحصها الطبيب الكبير استمع إلى طبيب الاسرة يقول له أن الفتاة مصابة بالتدرن الرئوي في أول أدواره ، فنصح عندئذ بمقاومة ضعف الفتاة بواسطة التغذية الصحيحة ، ثم اتفق الاثنان على أن ينصحوا الاسرة بأن تبعث بالفتاة إلى إحدى مدن المياه المعدنية .
ولكن البرنس شرباتسكي والد الفتاة كان يدرك أن فتاته مريضة من الحزن الذي يخترم قلبها بسبب هجر فرونسكي لها ، وقد نصحها أن تضبط عواطفها وأن تحاول أن تكون سعيدة .
وفي هذه الأثناء اجتمعت (انا كارنينا) بفرونسكي في حفلة أقامتها الأميرة (بتسي) ، فلم تعره اهتماماً في أول الأمر، وبعد أن أخذ جميع الحضور باطراف الحديث قالت له :
– لقد جاءتني رسالة من موسكو وفيها ان كاترين شرباتسكي مريضة جداً .
فقطب حاجبيه وهتف أحقاً تقولين ؟

فنظرت إليه بحدة وسألت : ألا يهمك هذا النبأ ؟

فأجاب : بل يهمني كثيراً ، هل لي أن اسألك عما جاء في الرسالة حرفياً بهذا الصدد ؟

فسارت انا حتى وقفت وراء مقعد بتسي وقالت لها :

– اعطني قدحاً من الشاي .

وبينما كانت بتسي تملأ القدح اقترب فرونسكي من انا وسألها مرة اخرى :

– ماذا جاء في هذه الرسالة ؟

فقالت انا دون أن تجيبه : انني اعتقد دائماً ان الرجال لا يفهمون معنى الشرف ، وان كانوا يتشدقون به على الدوام ، وقد كنت أود أن أقول لك ذلك منذ وقت طويل .

وجلست أمام مائدة صغيرة في أحد الأركان ، توجد عليها مجموعة من الصور وتبعها فرونسكي وقدح الشاي في يده ، وقدمه إليها وهو يقول : انني لا أفهم ما تعنين .

فأجابت دون أن تنظر إليه :

– انني اريد ان اقول لك ان سلوكك كان بشعاً .

– ألست أعلم ذلك ؟ ولكن من كان السبب ؟

فحدجته بنظرة صارمة وهتف : لماذا تقول ذلك لي ؟

فقابل نظرتها بجرأة وأجاب : أنت تعلمين لماذا ؟

فهتف : انك رجل لا قلب لك .

ولكن عينيها قالتا غير ذلك .

– انت تصدرين في هذا الكلام عن خطأ ، وليس عن (حب) .

فمرت في جسدها رعدة وقالت : انني أحظر عليك أن تنطق بهذه الكلمة السمجة مرة اخرى .

ولكنها شعرت في الحال ، بأن معنى هذا الحظر انها تعطي نفسها حقاً عليه ، من شأنه أن يشجعه ، فاستطردت وهي تنظر في عينيه بثبات :

– انني جئت اليوم خصيصاً لأنني أعلم انك هنا ، ولأنني اريد أن اقول لك ، انه يجب وضع حد لكل هذا .

« انني لم افعل قط مـــا يخجلني امام أي إنسان ، ولكنك تشعرني بأنني اقترفت ذنباً ما » .

فنظر إليهـا ، ورأى عينيها اللامعتين ، وجبينها الناصع ، وخديها الموردين بتأثير الإنفعال ، وراعه جمالها .

سأل في بساطة ، وبلهجة حدية : وماذا تريدينني ان اصنع ؟

فأجابت : اريد ان تذهب إلى موسكو وتعتذر لكاترين .

فقال دون أن يحوّل عينيه عن وجهها : انك لا تريدين ذلك .

فهمست : إذا كنت تحبني كما تزعم ، فافعـــل ذلك ، ليهدأ بالي ، وتطمئن نفسي .

فتهلل وجهه وأجاب :

– ألا تعلمين انك كل شيء لي في هذه الحياة ؟ انني إذا فقدت طمأنينتي ، فلا يمكن أن اكون مصدراً لطمأنينتك .

« نعم ، انني اشعر بأننا شخص واحد ، وبأن حياتك قد اقترنت حياتي ، وروحك قد امتزجت بروحي ، فـلا سبيل للفصل بيننا ، ولا طمأنينة لأحدنا دون صاحبه .

فقالت بصوت خافت وعيناها تكذبان لسانها :

– انني اسألك أمراً واحداً ، هو ألا تتحدث إليّ بعد الآن بمثل هذا الكلام وبحسبنا أن نكون اصدقاء .

– اننا لن نكون اصدقاء ، وانت تعلمين ذلك ، ولكننا نستطيع أن نكون أسعد أهل الأرض جميعاً ، او اشقاهم جميعاً ولك وحدك الخيار .

« اني اسألك أمراً واحداً ، اسألك الحق في ان آمل واتأمل ، فإن كان هذا مستحيلاً فمريني أتوارى عن الانظار » .

– اني لا اريد ان اقصيك .

– إذاً لا تبد لي شيئاً ، لقد اقبل زوجك .

* * *

دخل كارنين القاعة في هـــذه اللحظة فرمق زوجته وفرونسكي بنظرة سريعة ، وبعد ان حيا المدعوين جلس يتناول قدح الشاي الذي قدمته له الأميرة.

وظلت أنــا وفرونسكي في خلوتهما امــام المائدة الصغيرة يتحدثان همساً ، كأنه لا يوجد احد غيرهما في الصالة ، وفطن لحركتهما هــذه جميع المدعوين إلا كارنين الذي تجاهل هـــذه الخلوة وراح يأخذ بأطراف الحديث مع المدعوين ، وبعد نصف ساعة وقف وسأل زوجته فيما إذا كانت تريد العودة إلى البيت معه فاعتذرت ، بأنها ستتناول طعام العشاء مـــع (بتسي) فأحنى كارنين رأسه مودعاً وانصرف بمفرده .

وفي ساعة متأخرة من الليل غادرت (انــا) قصر الأميرة يرافقها الكونت فرونسكي ، وبعد ان اوصلها إلى عربتها ، قفل إلى منزله وهو يشعر بسعادة لا حدّ لها .

* * *

فلما عادت (انا) إلى منزلهـا وجدت زوجها كارنين لا يزال بانتظارها ، فقالت وهي تلقي بقبعتها على احد المقاعد :

– ألم تنم بعد ، ما اعجب هذا !

وحاولت الذهاب لغرفتها ، فقال لها كارنين :

– يجب ان اتحدث إليك يا أنـا .

فعادت اليه وجلست على احد المقاعد ، ونظرت اليه بجرأة وقالت :

– ماذا عندك وفيم تريد الكلام ؟

– يجب ان احذرك يا أنــا ، فأني اشفق ان تفسحي بقلة حذرك وعـــدم تبصرك سبيلاً للالسنة ان تتشدق باسمك ، ان خلوتك الليلة بالكونت فرونسكي وحديثك الطويل معه ، قد لفتا الأنظار .

— هــــذا شأنك دائماً ، تعيب صمتي وجمودي تارة ، وتـأخذ عليّ مرحي وثرثرتي تارة اخرى .

فقال كارنين : اني لا اقيم وزناً للغيرة ، ولكنني لحظت ان احداً من المدعوين لم يقرك على سلوكك .

ونهضت واقفة وهي تقول :

— ليس عندي ما اقوله سوى ان موعد النوم قد ازف .

فتنهد كارنين ولم ينطق بكلمة ، وقصد الى غرفة النوم حيث لحقته (أنـا) بعد قليل ، لتجده يغط في نومه .

اما هي فبقيت وقتاً طويلاً مفتوحة العينين ، حتى خيل لها انها ترى وميض عينيها في الظلام .

* * *

راحت (انـا) تغشى الحفلات والسهرات بعد هذه الليـلة ، وتختلف الى بيت الأميرة بتسي بصورة خاصة ، وتقابل فرونسكي في كل مكان تذهب اليه.

ولاحظ كارنين كل هــــذا ، ولم يجد في مقدوره ان يفعل شيئاً ، فقد ظلت زوجته اشبه بحصن غامض منيـع ، يعتذر عليه اقتحامه ، وامــاطة اللثـام عن اسراره .

كان إذا حاول التفاهم معهـا ، لجــأت الى اللف والدوران ، وتظاهرت بالدهشة والسذاجة ، واصطنعت الحيرة المقرونة بالمرح والتهكم .

وهكذا بقيت الصلة بينهما في الظاهر كما كانت قبلاً ، ولكن علاقتهما الخاصة والصلة المقدسة التي تؤلف بين قلبيهما ، وحسبهما كزوجين ، لم تلبث ان افسحت السبيل لفتور استحال مع الوقت الى نفور متبادل .

ووجد الزوج نفسه ، وهو القوي في عمله ، البارز في بيئته الرسمية ضعيفـاً في بيته ، ولا حول ولا قوة امام زوجته ، فطأطأ رأسه كالثور ، منتظراً النير الذي يراه مرفوعاً فوق عنقه .

وكان كلما فكر في الأمر شعر بانه يجب عليه ان يحاول مرة اخرى ، لعله يستطيع باللطف والاقناع والحسنى ، ان ينقذ زوجته ، ويحملها على التفكير في مصيرهـا .

وكلما فكر في التحدث اليها ، اصابته عدوى النفاق الذي تعيش فيه زوجته فارتد عما كان في سبيله .

واخيراً اقتطف فرونسكي الثمرة التي كان يشتهيها ويسعى اليها منذ عـام ونعم العاشقان بخلوة عذبة شهيـــة ، ولكن (انـا) ما برحت ان عادت الى نفسها واخذت تبكي بكاء مراً وقد شعرت بانها آثمة مذنبة ، وازداد رأسهـا البديع هبوطاً فوق صدرها ، وتضاعف شعورها المذلة والعار والهوان ، وهي التي كانت لايام خلت ترفع رأسها في كبرياء وخيلاء .

ومرّت بها الأيام، وكانت إذا أوت إلى فراشها ، وجدت احلامها تصور لها موقفها عارياً بكل ما فيه من خزي وعار .

كانت في كل ليلة تقريباً ترى حلماً واحداً، انها بين زوجين يقتسمان جسدها وينعمان بها ، فاليكسيس كارنين يبكي على صدرها ، ويهمس في اذنها : « مـا اسعدنا الآن » ، وفرونسكي يقبلها ، ويقول لها مثل ذلك ، وهي تبتسم وتقول لهما : انها لم تكن تعتقد ان الأمر سيكون بمثل هذه البساطة ، وان ثلاثتهم قـد اصبحوا الآن اسعد اهل الأرض طرا .

ولكن هذا الحلم كان يرزح فوقها كالكابوس، وكانت تستيقظ منه مشمئزة مذعورة .

- ٥ -

الاعتراف

زار (اوبلونسكي) صديقه ليفين في بيته الريفي في احد الأيام فرحب به صديقه ، لأنه كان يحبه حقاً .

وقال اوبلونسكي يتحدث إلى صديقه وعلى شفتيه ابتسامة المحبة :

– لا شك انك لم تكن تنتظرني ، ولكني جئت لثلاثة امور : رغبتي في ان اراك ، وشغفي بالصيد معك، وأخيراً اريد ان ابيع ما املكه في هذه الناحية .

ولم يذكر (اوبلونسكي) كلمة عن كاترين او عن (آل شرباتسكي) ، فشكر له ليفين في سره هذا الصمت حتى لا تدمى جراحه القديمة ، ولكنه في الوقت نفسه كان يشعر بفضول شديد إلى معرفة آخر اخبار كاترين ، بعد ان دفن نفيسه في مزرعته ولم يعد يزور موسكو .

وفيما كان الصديقان يتناولان الطعام عرف ليفين من صديقه بأنه متصل بامرأة جديدة ، فهز ليفين رأسه وسأله :

– اين فرونسكي الآن ؟

– انه في بطرسبرغ وقد غادر موسكو بعد رحيلك، ولم يعد اليها منذ ذلك الوقت ، وقد اخطأت في الهرب من المعركة ، فلماذا لم تتشجع وتطلب يدها كما نصحت لك ان تفعل ؟

ونظر اليه ليفين بامعان وهو يقول لنفسه :

– هل يعلم اني طلبت يدها ورفضتني ؟

واستطرد (اوبلونسكي) : إذا كنت قـــد توهمت أنها تؤثره عليك فقد أخطأت .. ولعلك تعلم أن نبله ومكانته في الهيئة الاجتماعية ومستقبله الباهر ، كل ذلك كان من شأنه أن يغري الام بترجيحه عليك .. إما الإب وإما الإبنة .

فقاطعه ليفين بحدة : صبراً .. صبراً .. إنك تصفه بأنه نبيل، ولكني احب أن أسألك ، ما هو هذا النبل الذي تصف به فرونسكي أو سواه .. وترى أو يرى غيرك أنه من الصفات التي ترجحه على شخص مثلي ؟

« انك تعتبر فرونسكي نبيلاً ، ولكني لا أعتبره كذلك .. ولا أستطيع أن أصف بالنبل رجلاً خرج أبوه من الأوحال ، ونال لقبه بالكيد والدس والرياء والنفاق ، واتصلت امه بهذا وذاك ، وصار اسمها مضغة في الأفواه .

« كلا يا صديقي .. انني وأمثالي لا نحمل لقباً .. ولكننا نحن النبلاء ، لأننا نستطيع أن نعدد أسلافنا لثلاثة أو أربعة أجيال،وكلهم ممن لم يطأطئوا الرؤوس لأحد، ولم يتفيأوا ظل أحد ولم يتخذوا نساءهم سلماً للحصول على المراكز البارزة وألقاب النبل والشرف .

« النبلاء هم ذراري الأشراف الذين عاشوا بكدهم وكرامتهم كما عاش آبائي وأجدادي » .

فدهش اوبلونسكي لهذه الفورة ، وأحس بأن كلام ليفين ، ينصب عليه كما ينصب على فرونسكي ، ولكنه كان يعرف الكثير عن اخلاص صاحبه ، وحماسته لآرائه الى درجة الحماقة فقال :

– انني لا اناقشك في هذا ، ولكني اقرك عليه، رغم أن الكثير مما ذكرته لا ينطبق على فرونسكي .

انني أردت فقط أن أقول لـك انك أخطأت بانسحابك من الميدان وانني لو كنت في مركزك لذهبت حالاً الى موسكو ، وقابلت كاترين ، وقمت بمحاولة جديدة ، وأنا مطمئن الى النجاح » .

فوجم ليفين ، وهبطت حماسته فجأة ، وقال بلهجة المشدوه : أحقاً تقول ؟

* * *

كتم (فرونسكي) قصة غرامه الجديد فلم يتحدث به الى مخلوق ، ولكن صلته بأنا كارنينا كانت حديث الناس في أنحاء المدينة .

وكان أكثر الشباب يحسدونه من أجل اسم كارنين، ومنصبه الخطير ومركزه البارز ، والدوي الذي سوف تحدثه للفضيحة في المجتمع .

أما النساء اللاتي كن يغرن من (أنا) ويحسدنها لجمالها وفتنتها وطالما تحملن من حديث الناس عن طهارتها وفضائلها . فقد رجين بسقطتها ، وتأهبن لتلطيخ اسمها بالأوحال في الوقت المناسب .

أما الشيوخ المجربون فقد أسفوا لهذه الفضيحة الاجتماعية التي تطوّف بالجو.. وتوشك أن تنقض كالصاعقة .

ولما سمعت الكونتس فرونسكي بعلاقات ولدها ، شعرت بسرور خبيث ، فليس هناك ما يشق للشاب طريقاً في المجتمع مثل توطيد علاقاته العاطفية في صميم الطبقة الراقية ، ولكنها ما كادت تعلم أن فتاها قد رفض منصباً خطيراً في الجيش ، ورفضه خصيصاً لكي يبقى في بطرسبورج ، وان رفضه قد أغضب الدوائر العليا ، حتى ايقنت أن علاقات والدها الغرامية ستكون حجر عثرة في سبيله ، وليست سبيلاً لنجاحه وظهوره في المجتمع .

وكذلك تبرم شقيق فرونسكي الأكبر من علاقته هذه ، لأنها قد تضر بأخيه ولا تنفعه .

وكان فرونسكي من المغرمين بالجياد ، ولما علم أن قيادة الجيش تنظم سباقاً هاماً للفرسان سيشهده القصر ، ابتاع جواداً انكليزياً ، وسجل اسمه بين المتسابقين ، ولم يصرفه انغماسه في الحب عن التدرب والاستعداد للسباق .

وقرر قبل موعد السباق أن يذهب لزيارة (أنا) في بيتها الريفي ، وكان يعلم أن زوجها لن يكون فيه ذلك الوقت .

ولكنه اذا كان يضيق صدراً بوجود الزوج فقد كان يضيق صدراً بوجود الابن الصغير ايضاً ، فقد كان العاشقان لا يسمحان لنفسيهما أن يقولا في حضرته شيئاً يخجلان من قوله على مسمع من سائر الناس ...

كانا لا يتحدثان أمامه إلا فيما يتحدث فيه الأصدقاء ، ومع ذلـــك فلم يفت فرونسكي أن يلاحظ نظرات القلق التي كانت ترتسم في عيني الصغير كلما نظر اليه .. وكأنه كان يشعر بأن بين هذا الرجل وامه علاقة خطيرة لا يستطيـع أن يفهمها ..

ولكن (سيرج) لم يكن في البيت في هـذه اللحظة ، وكانت (أنا) واقفة على الشرفة بين الزهور تنتظر عودة ولدها .

ولما طال انتظارها .. وقفت بين أواني الزهر التي تزين الشرفة .. فلم تسمع وقع اقدام فرونسكي .. ولم تشعر باقترابه .

وكانت ترتدي ثوباً أبيض فضفاضاً .. فتريث فرونسكي في وسط الغرفة .. وراح يملأ عينيه بجمال جسدها .. ورأسها .. وعنقها .. وساعديها .. وكأنه يراها لأول مرة .

ولما تقدم خطوة اخرى .. أحست به .. وتحولت اليه .

قال لها بالفرنسية : ماذا بك .. هل انت مريضة ؟

وود لو يهجم عليها ليحتويها بين ساعديه ، ولكنه أشفق أن يراه بعض الخدم .. فنظر حوله في قلق ، واحمر وجهه .

أجابته ، وهي تشد على يده بثبات :

– كلا .. انني في خير حال . ولكنني لم أكن .. أنتظرك .

يا إلهي .. ان يدك باردة كالثلج .

« لقد أخفتني .. لقد كنت وحدي أنتظر عودة سيرج » .

وحاولت أن تصطنع الهدوء . ولكن شفتيها كانتا ترتجفان .

قال :

– معذرة عن قدومي .. ولكن قد خيل الي أن الفرصة سانحة لمقابلتك .

– ولم الاعتذار ؟ انني سعيدة بقدومك .

فقال دون أن يفلت يدها من يده :

– ولكنك مريضة ، أو حزينة ، فيم كنت تفكرين ؟

فأجابت وهي تبتسم : انني افكر دائماً في ذات الشيء .

وكانت صادقة.. ولو انها سئلت في أية لحظة عن موضوع تفكيرها، لأجابت صادقة : « افكر في سعادتي وشقائي » .

وقد كانت ساعة دخوله تفكر في صلتها به وتسأل نفسها : « لماذا تقض هذه الصلة مضجعها ، بينما سواها – كالأميرة بتسي – تنعم بعشيقها ، ولا تكابد مثلها شيئاً من الألم ووخز الضمير ؟

* * *

ولاحظ فرونسكي ان يدها ترتجف ، فرمقها بتلك النظرة الرقيقة الذليلة التي يعرف تأثيرها عليها وقال :

– أنا واثق من أن في الأمر شيئاً .. فكيف أستطيع أن أنعم بالهدوء والطمأنينة وأنت تألمين ألماً ليس لي منه نصيب ؟ خبريني بحق السماء ، ماذا بك؟

فغمغمت : هل أتكلم ؟

فهتف ضارعاً : نعم . نعم .

فهمست ببطء : انني حامل .

واهتزت الزهرة في يدها بعنف ، ولكنها لم تحوّل عينيها عن وجهه لترى وقع النبأ في نفسه .

اصفر لونه وحاول ان يقول شيئاً ، ولم يستطع ، وسقط رأسه فوق صدره، فقالت لنفسها :

– لقد فهم الموقف وأدرك كل خطورته ..

وضغطت على يده شاكرة .

ولكنها كانت على خطأ ، فإنـه لم يدرك خطورة الموقف من وجهة نظرها كامرأة ، وكل ما هنالك انه احس بأن الأزمة التي كان يتطلع اليها قد حدثت . وان اخفاء الحقيقة عن الزوج قد اصبحت مستحيلة، وانه قد صار من الضروري وضع نهاية سريعة لهذا الموقف غير الطبيعي بأي وجه من الوجوه .

قبّل يدها في خشوع ، وأخـــذ يسير في الشرفة جيئة وذهاباً .. ثم وقف أمامها وقال في حزم :

– نعم . ان احداً منا لم ينظر الى علاقتنا كوسيلة للهو والتسلية ، وقد صار من الضروري الآن ان نضع حداً لهذا النفاق الذي نعيش فيه ...

فهمست : ولكن كيف نضع له حداً يا اليكسيس ؟

– لا سبيل إلا أن تهجري زوجك وتقرني حياتك بحياتي ..

– لقد اقترنت حياتنا منذ أول يوم .

– نعم .. ولكن يجب أن يكون ذلك علانية .

– كيف يكون ذلك ؟ ألست امرأة زوجي ؟

– يوجد حل لكل عقدة، ومخرج من كل مأزق، أتحسبين أنني لا أرى كيف تتألمين من كل شيء ؟ من المجتمع ومن أجل ولدك وزوجك ؟

– كلا . انني لا أتألم من أجل زوجي . انني لا أشعر بوجوده .

– ولكنك تتألمين من أجله . وأنا واثق من ذلك ...

– انه لا يعلم بشيء .

واحمر وجهها ، واغرورقت عيناها بدموع الخجل .

واستطردت :

– وماذا تريدني ان افعل ؟

– الرأي عندي أن تصارحيه بكل شيء .. ثم تهجريه .

– هب انني فعلت ذلك .. فهل تعلم ماذا تكون النتيجة ؟

ولمعت عيناها ببريق خبيث واستطردت :

– ستكون النتيجة أن يهتف زوجي قائلا : « آه .. انت تحبين رجلا آخر، ولك به علاقة أثيمة ! لقد سبق لي ان حذرتك ، وأنذرتك بالخطر من الناحية الدينية والمدنية والعائلية ولكنك ضربت بتحذيري عرض الافق ... والآن ليس بوسعي ان اسمح لك او لعشيقك بتلويث اسمي واسم ...

وأرادت ان تقول: « واسم ولدي » . ولكنها أمسكت .. لأنها كانت تحل

ولدها من ذات نفسها محلاً عزيزاً مقدساً .. ولا تسمح حتى لنفسها بمجرد التفكير في الاساءة اليه وتلويث اسمه ..

— نعم .. سيقول لي ذلك ويضيف عليه بلهجته الرسمية الحازمة : انـه لن يفسح لي السبيل ولن يسمح لي بمغادرة بيتي. وسيتخذ الاجراءات الكفيلة بصون اسمه وشرفه . ومنع الفضيحة المنتظرة .

« سيقول لي ذلك وسيعمل على إنفاذه بما طبع عليه من الدقة والبرود والحزم.

« هكذا ستكون النتيجة يا صديقي .

« انه ليس رجلاً . ولكنه آلة ، وآلة شديدة القسوة في حالة الغضب » .

فقـال فرونسكي بلهجة الاقتنـاع : مهما يكن من شيء فيجب مصارحته بالحقيقة . وعلينا بعد ذلك أن نتصرف وفقاً لموقفه منا .

« لماذا لا تهجرينه يا أنا ؟ ان هذه الحالة لا تطاق ولا يمكن ان تستمر .

— آه .. أتريدني على أن اهجره .. لأقيم معك كعشيقتك ؟

فغمغم بلهجة العتب : أنا .

— نعم .. اصبح عشيقتك .. واهدم مستقبل .. وأهدم كل شيء .

وأرادت مرة اخرى ان تقول (مستقبل ولدي) .. ولكنهـا لم تجرؤ على ذكر ولدها .

ولم يفهم فرونسكي .. كيف تستطيع أنا رغم انطباعهـا على الصدق والصراحة ، أن تطيق مثل هـذه الحياة الحافلة بأساليب الكذب والنفاق والخداع .. ولم يفطن الى ان السبب الأساسي هو ولدها . الذي لا تجرؤ على ذكره في أحاديثها معه .

وقالت في اخلاص ولطف ، وهي تتناول يده :

— انني ارجوك ، وأضرع اليك ، ألا تتحدث إلي في هذا الموضوع .

— ولكن يا أنا ...

كلا .. كلا .. دع الأمر لي .. انني اعرف موقفي بكل فظاعته وعاره .. ولكن معالجته ليست من الأمور الميسورة كما يتراءى لك .. عدني بألا تتحدث

إلي في هذا الموضوع ؟

انني اعدك بكل شيء .. ولكنني لا أستطيع ان أشعر بالطمأنينة وأنت تعانين كل هذا القلق وهذا الشقاء ..

– أنا ! نعم . انني اعاني في بعض الأحيان .. ولكنني لا أشعر بموقفي .. إلا كلما حدثتني عنه .

– انني أعجب .. كيف اقدمت على كل هذه التضحيات من أجلي .. ولن أغفر لنفسي قط انني جلبت عليك كل هذه التعاسة ..

وسمعت صوت ولدها في هـــذه اللحظة ، فنهضت مسرعة ، وقبلت فم فرونسكي وعينيه وهمست :

– اذهب ..

* * *

ظلت علاقات كارنين بزوجته في الظاهر على ما كانت عليه ، وكل ما لوحظ عليه انه اصبح أشد انغماساً في عمله مما كان عليه قبلاً .

ولم يقع بين كارنين وزوجته (أنا) شيء منذ نصحها بالحذر وعدم التورط، وإثارة الإشاعات بين النـاس ، ولا أشعرها بشكوكه وغيرته ، وما كان يلمحه من كلام الناس معه، بشأن زوجته وعلاقاتها مع فرونسكي ، ولم يشأ ان يلحظ أن الناس بدأوا ينظرون الى زوجته متسائلين .. ولم يشأ التفكير في هـــذه الحركات المريبة التي كانت تجري حوله .

كان فيما مضى ينعم بالحياة الزوجية الهنيئة . فإذا قيل له ان زوجة فلان تخونه ، هز رأسه أسفاً وقـــال : ان الذنب ذنبه . لماذا لم يتدارك الأمر منذ البداية ، ولماذا لم يعمل على اقناع زوجته ، وردعها عن غيها .

والآن وقد نزلت به النكبة، فانه لا يشعر بعجزه عن تدارك الأمر فحسب، بل يرفض الاعتراف بوجوده .

وكان قد صرف اشهراً في الخارج تاركاً زوجته وحدها في بيتها الصيفي ،

ومنذ عـــاد من الخارج لم يذهب الى بيته الصيفي إلا مرتين ، ففي المرة الاولى تناول الغداء بمفرده. وفي الثانية قضى السهرة مع بعض زائريه. ولكنه لم يقض الليل قط في ذلك المنزل ، كما اعتاد أن يفعل في الأعوام السابقة .

وكان اليوم المحدد لسباق الفرسان ، من أشد أيام كارنين ازدحاماً بالعمل ، ولكنه اعتزم عندما وضع برنامجه في الصباح ان يزور زوجته في البيت الصيفي ، ثم ينطلق بعد ذلـك لشهود السباق ، كما قرر أن يزور زوجته في بيتها الصيفي مرة كل اسبوع للمحافظة على الظواهر وقطعاً لألسنة المتقولين .

* * *

ضاق صدر (أنا) لما شاهدت زوجها مقبلا في عجلة ، وبهتت وغمغمت :

– يا لسوء الحظ .. ترى هل يقضي ليلته هنا ؟..

وشعرت بالنفور والاشمئزاز .. ولكن كان لا بـد من استقباله فأسرعت اليه ، وقد نشطت فيها روح الكذب والرياء ..

وبعد أن رحبت به أخبرته انها دعت (بتسي) لمرافقتها الى حفلة السباق ، وقطب كانين حاجبيه عندما سمع اسم (بتسي) وقال :

– انني لن احاول التفريق بين اثنين لا يفترقان ، وسأذهب الى السباق سيراً على قدمي ، فقد نصح لي الأطباء بالرياضة مشياً على الأقدام .

وبعـــد قليل أقبلت بتسي ، فودعت (أنا) زوجها ، وقبّل هو يدها ، وانصرفت عنه ووجهها يتألق سعادة وغبطة . ولكنها ما كادت تتوارى عن عيني زوجهـــا ، حتى أحست بطابع شفتيه على يدها ، فاقشعر بدنها نفوراً واشمئزازاً .

ولما وصل كارنين الى ميدان السباق ، كانت (أنا) بجانب (بتسي) في الشرفة الكبيرة التي اعدت لأعضاء الطبقة الممتازة في المجتمع .

وشاهدته وهو يتقدم في وسط الزحـــام موزعاً تحياته ذات اليمين وذات اليسار.. ويقابل دلائل الاحترام والتبجيل بابتسامة الرجل الذي يشعر بخطورة مركزه .

وكانت زوجته تمقت حبه للظهور ورغبته في توقير النـــاس له ، وتقول في نفسها إنه لا يفكر في غير نفسه .

وحدث في هذه اللحظة ان اقبل احد القواد ولم يكن السباق قد بدأ بعد . فراح كارنين والقائد الكبير يتجاذبان أطراف الحديث .. بين محبذ للسباق .. ومشفق على حياة الفرسان .. من أخطار العوائق والحواجز الـــتي وضعت في طريقهم أثناء السباق .

وأصغت (أنا) الى زوجها .. ولم تفتها كلمة واحدة من حديثه .. وخيل اليها ان صوته الثاقب يؤلم اذنيها ، وعجبت ، كيف لا يشعر النـــاس بكذبه ونفاقه .. وكيف لا يدركون انه يصدر في كل كلمة ينطق بهـــا عن رغبة في اسماع صوته .. وليس عن إيمان واقتناع بصدق ما يقول .

قالت لنفسها : إن الكذب غذاؤه .. وحب الظهور طعامه ..

انه يعرف كل شيء .. ويرى كل شيء.. ولا يصمت إلا لأنه كاذب منافق، يحرص على الظواهر أكثر مما يحرص على عرضه .

« لو حاول ان يقتلني .. او لو قتل فرونسكي .. اذن لفهمته واحترمته .. ولكنه لا يفعل شيئاً من ذلك .. لأنه يعيش في جو من الكذب ، ولأنـــه لا يحرص إلا على الظواهر .

قالت ذلك لنفسها دون ان تعرف ماذا تطلب حقاً من زوجها، وماذا تريده أن يكون .

ولم تفهم أن ثرثرة كارنين التي تزعجها وتثير نفورها .. ليست إلا مظهراً من مظاهر قلقه الداخلي وعدم استقراره .. وان مثله كمثل طفل سقط على ركبته ، فكما أن الطفل يحرك ساقه بسرعة لكي يضعف تأثير الألم.. كذلك كان كارنين بحاجة الى النشاط الذهني .. ليضعف من تأثير الألم الذي يشعر بـه كلما رأى زوجته وعشيقها .

* * *

وبدأ السباق أخيراً .. فكف القوم عن الحديث .. وحبسوا أنفاسهم .. ونهضوا واقفين .. وأرسلوا بصرهم نحو السبعة عشر ضابطاً الذين اشتركوا في المباراة .

ورفعت (أنا) منظارها الى عينيها ، وتوجهت به الى ناحية واحدة ، والى شخص بذاته .

ولما كان كارنين قليل الاكتراث بالسباق ونتيجتــه ، فإنه حوّل بصره عن الحلبة ، وأخذ يرقب النظارة بعينيه المتعبتين ، ووقع نظره ضمناً على زوجته .

كانت شاحبة الوجه محتبسة الأنفاس .. ولا شك انها لم تكن ترى في تلك اللحظة شيئاً ، أو أحداً ، فيما عدا الشخص الذي يعنيها .

وأشاح كارنين عنها بوجهه ، ونظر إلى سائر النظارة ، وقال لنفسه :

— ان جميع النظارة يشعرون مثلها بالقلق والانفعال ، ولا عجب في ذلك .

ونظر إلى زوجته مرة اخرى على الرغم منه ، وحاول ألا يقرأ ، وهاله أن يعرف ما لم يشأ أن يعرفه .

وسقط أحد الفرسان وراء أحد الحواجز ، فتماوج النظارة كالبحر الزاخر ، وارتفعت من أفواه النساء صيحات الذعر والفزع .. وفهم كارنين من تألق عيني أنّا ، ان الشخص الذي يعنيها ، ليس هو الذي سقط .

واستمر السباق ، وسقط فارس آخر ، فهتفت إحدى السيدات :

— هذا مخيف .. هل ثمة ضرورة لهذه الفظاعة ؟

ورأى كارنين ان (أنّا) لا تتحرك ، لا تتنفس ، وكأنها لا تشعر بشيء مما حولها ، بل وكأنها لم تلاحظ سقطة الفارس الثاني .

وأشرف المتسابقون على الحاجز الكبير .

ورغم انصراف (أنّا) الى مراقبة فرونسكي ، فانها شعرت شعوراً غامضاً بنظرات كارنين ، فتحولت اليه لحظة ، ورمقته في برود وكأنها تقول له : إنني لا اعبأ بك ..

ولكنها ما كادت تنظر الى حلبة السباق مرة اخرى حتى سقط فرونسكي ،

وسقط جواده فوقه ، فأفلتت من فم (أنـّا كارنينا) صيحة ذعر ، ارتفعت على سائر الصياح ، وثقبت جميع الآذان .

ثم سقط المنظار من يدها ، فالتقطته ، ونهضت واقفة ، ثم تهالكت على مقعدها ، وأصبحت منذ تلك اللظة كالطير الحبيس ، تقف تارة وتجلس اخرى ، وتتلفت حولها ، وتريد أن تقول شيئاً ، ولا تدري ماذا يجب أن تقول .

وحينئذ اقترب منها كارنين وقال بالفرنسية :

– هلمي بنا نذهب .

ولكنها لم تسمعه ، لانها كانت تصغي بكل حواسها الى ضابط أقبل من الحلبة في تلك اللحظة .

كان الضابط يقول : يقولون ان ساقه انكسرت ، وان جواده قتل ، وهذا مخيف .

فرفعت أنـّا المنظار الى عينيها ، وتوجهت به نحو المكان الذي سقط فيه فرونسكي . ولكنها لم تتبين شيئاً ، فقد ازدحم الكثيرون حوله حتى حجبوه عن الأبصار .

ونهضت أنـّا مرة اخرى كأنها تهم بالانصراف . فقال لها كارنين وهو يلمس كتفها :

– انني أقدم لك ساعدي ، هلمي ننصرف إذا شئت .

ولكنها تراجعت في فتور وأجابت دون أن تنظر اليه :

– كلا .. كلا .. دعني وشأني ، انني سأبقى .

وفي هذه اللحظة أقبل أحد الضباط ، ونقل الى القيصر نبأ .

وشاع على أثر ذلك ان فرونسكي لم يصب بسوء ، وان جواده قتل .

وعندئذ فقط استقرت (أنـّا) على مقعدها ، وأخفت وجهها بين كفيها .

ولاحظ كارنين ان صدرها يعلو ويهبط بعنف ، وانها تبكي ، ولا تستطيع إخفاء دموعها وتنهداتها . فتقدم منها ووقف أمامها ، ليحجبها عن عيون الناظرين ، حتى تملك نفسها ، وتسيطر على شعورها .

قال لها بالفرنسية بعد لحظة : للمرة الثالثة اقدم لك ساعدي .
فنظرت اليه ولم تعرف بماذا تجيب .
وهنا خفت الأميرة بتسي لنجدتها وقالت :
— كلا يا اليكسيس كارين ، انني أحضرتها أنا الى هنا ، وسأعود بها .
فأجابها وعلى شفتيه ابتسامة مؤدبة ، وفي عينيه نظرة صارمة :
— معذرة ياسيدتي الأميرة، ولكنني أرى ان هذا السباق يؤثر على أعصابها، واريد أن تعود برفقتي .
فنظرت أنـّا حولها في ذعر ، ثم نهضت طائعة ، وتأبطت ساعد زوجها .

* * *

وراح (كارنين) يحيى أصدقاءه عند انصرافـه بمثل الهدوء والأدب الذي حياهم به عند قدومه ، واضطرت أنـّا كذلك أن تحيي صديقاتها ، وأن تبتسم لهن .. ولكنها كانت في الواقع ذاهلة مشدوهـة ، تمشي وكأنها في حلم ، ولا تكف عن سؤال نفسها :
— تري هل نجا حقاً ، أم قد انكسرت ساقه ؟
وجلست في ركن المركبة بجانب زوجها دون أن تنطق بكلمة .. وسارت المركبة بهما بعيداً عن ضجة الحلبة .
وبالرغم من جميع الأعراض التي شهدها كارنين ، فانه رفض أن يسمح لنفسه بالتفكير في أمر زوجته ، ولم يلاحظ إلا أنها أساءت التصرف ، ولفتت اليهـا الأنظار ، ولم تحافظ على الظواهر ، وان من واجبه أن يقول لها ذلك .
ولكنه لم يعرف كيف يبدأ الحديث .
وأخيراً ، وبعد تردد طويل ، مهد لغرضه بقوله :
— من العجب ، ان الغريزة البشرية تحفز جميع الناس الى شهود هذه المناظر القاسية ..
فهتفت باحتقار : ماذا تقول ؟ انني لا أفهمك .

فأغاظته لهجتها ، وقرر أن يصارحها بما عنده فقال بالفرنسية :

– يجب أن أقول لك ان سلوكك اليوم كان معيباً .

فأجابت بسرعة وبصوت مرتفع ، وهي تنظر في عينيه بجرأة :

وكيف كان سلوكي معيباً ؟

– ذلك الجزع الذي أبديته عندما سقط أحد الفرسان .

وانتظر جوابها .. ولكنها لزمت الصمت ، فاستطرد :

– لقد طلبت اليك مرة قبـــل الآن ، أن يكون سلوكك بحيث لا يسمح لألسنة السوء أن تتشدق بإسمك .

ولم تسمع أنـّا نصف حديثه ، لأنها كانت في شاغل عنه بالتفكير فيما أصاب فرونسكي ، ولكنها ابتسمت في تهكم حين فرغ كارنين من كلامه ، وظن كارنين انها تبتسم ساخرة من شكوكه ، وانها ستقول له الآن ، ما قالته مراراً . من أن شكوكه ليست إلا وهماً مضحكاً ، لا أساس له .

ولم يكن يطمع منها في أكثر من ذلك ، لأن ما تبينه في ميدان السباق، كان من الهول والقسوة ، بحيث حبب اليه أن يسمع منها أي شيء ، أية كذبــة ، توهمه بخطأ ظنونه وريبه .

استطرد : ربما كنت مخطئاً ، وفي هذه الحالة يجب أن أسألك المعذرة .

فأجابته ببطء ، وهي تنظر الى وجهه الهادىء في يأس وقنوط :

– كلا .. انك لست مخطئاً ، انني جزعت حقاً حين رأيته يسقط .

« انني أصغي اليك ، ولكني أفكر فيه .

« انني احبه ، انني عشيقته .

« وأنا أخافك وأمقتك ولا أطيقك ، فافعل بي الآن ما شئت .

وتهالكت في ركن المركبة ، ودفنت وجهها بين يديها ، وانفجرت باكية .

أما كارنين فلم يتحرك من مكانه ، ولم يحول اتجاه عينيه .. ولكن وجهه امتقع في الحال حتى صار كوجوه الموتى .

وبقيا كذلك حتى اقتربت بهما المركبة من البيت. وعندئذ تحول اليها، وقال:

— نعم.. ولكنني اطالب بالمحافظة على الظواهر حتى (وهنا ارتجف صوته) حتى اقرر ما يصون شرفي ، وسوف انبئك بقراري .

ووقفت المركبة فرافق زوجته الى الباب ، وشدّ على يدها أمام الخدم ، ثم عاد الى المركبة وأمر الخادم أن ينطلق الى بطرسبورغ .

وبعد دقائق جاء الخادم يحمل الى (أنـّا) رسالة من بتسي تقول فيها ان فورنسكي سليم معافى .

وأشرق وجه (أنـّا) وقالت : يا للسعادة ...

— ٦ —

بعد الاعتراف

كان كارنين لا يُطيق أن يرى أو يسمع طفلاً أو امرأة تبكي .

كانت الدموع تزعجه وتعصف بهدوئه واتزان عقله ، ولما صارحته (أنـّا) بحبها لفرونسكي ، وانفجرت تبكي أمامه عجز عقله عن التفكير ، فلزم الصمت ولم يقوَ على الكلام .

كان اعتراف زوجته مؤيداً لأسوأ ظنونه ، فحز الألم قلبه ، واشتد تأثره عندما شاهد دموعها ، ولكنه ما كاد يخلو الى نفسه في المركبة حتى أحس كأن حملاً ثقيلاً قد ازيح عن صدره ، وخيل له انه لم يتخلص من الشعور بالعطف على زوجته فحسب ، ولكنه تخلص أيضاً من آلام الغيرة وعذاب الشك .

وقال يحدث نفسه : : انها امرأة لا قلب لها ولا شرف ولا دين ، وقد كنت أتوقع كل هذا ، ولكنني حاولت أن أخدع نفسي رحمة بها واشفاقاً عليها .

وأحس بأنه أصبح ينفر من الأم وولدها ، وبأن مصيرهما لم يعد يهمه ، وما عليه إلا أن يبحث عن أفضل السبل للخلاص من الموقف المؤلم الذي جرّته اليه.

وفكر كيف يثأر لشرفه ، أيطلب العاشق للمبارزة ؟ ولكنه ما عتم أن طرد هذه الفكرة لما تصور المسدس في يده ، فاضطرب وأشفق على نفسه .

وجال في خاطره أن يطلقها ، ولكنه ما عتم أن نبذ هذه الفكرة التي سوف تتيح لزوجته أن تصبح حرة .

وأخيراً استقر رأيه على الحل الوحيد الذي يحقق أغراضه ، وهو الاحتفاظ بزوجته ولينتقم منها ، ويتخذ الاجراءات لوضع حد لعلاقاتها الغرامية ، ويعمل على خنق الفضيحة في مهدها .

وأعجبته هذه الفكرة فقد وجد فيها انه يحقق غرضاً انسانياً ، وهو ان يتيح لها سبيل الندم والتوبة .

فلما وصل الى مكتبه في (بطرسبورغ) كتب الى زوجته ما يلي :

« لقد وعدت خلال الحديث الذي دار بيننا ، بأن أنهي اليك قراري في صدد الموضوع الذي تناوله الحديث ، واليك هذا القرار :

« مهما تكن فعلتك ، فانني لا أرى من حقي أن أفرق ما جمعه الله .

« ان جحود أحد الزوجين، وتبذله، بل واثمه لايجب أن يقوض بناء الأسرة.

« لذلك أرى ضرورياً من أجلي ، ومن أجلك ومن أجل ولدنا أن تبقى حياتنا كما كانت قبلاً ، ولا ريب عندي في انك الآن تشعرين بالندم وترحبين بالتعاون معي لإزالة أسباب الخلاف ونسيان الماضي ، وإلا فليس من المتعذر عليك ان تدركي ما ينتظرك وينتظر ولدك .

« على انني ارجو ان اتحدث اليك في كل هذا بإسهاب في مقابلة شخصية .

« ولما كان الصيف قد قارب الإنتهاء .. فانني اطالبك بالعودة الى بطرسبرغ في موعد غايته يوم الثلاثاء .. وأعقد أهمية كبرى على اجابة هذا الطلب » .

* * *

ضاق صدر (أنا) لما قال لها (فرونسكي) ان الموقف اصبح صعباً دقيقاً ،

ولكنها كانت تشعر في قرارة نفسها انه على حق ، وترجو من كل قلبها أن تضع له حداً ..

ولما صارحت زوجها بخيانتها في لحظة انفعال ويأس ، جعلت تقول لنفسها انها احسنت حقاً بما فعلت ، وان موقفها اصبح صريحاً ، وانها لم تعد بحاجة الى الحياة في جو من الكذب والنفاق .

فلما كان اليوم التالي عادت الى نفسها ، وأحست أن الموقف قد زاد تعقيداً ، وبدأت تفكر في الفضيحة التي لم تحسب لها حساباً من قبل ، وصوّر لها الوهم كل ما يجوز لزوجها أن يفعله ، فتوقعت ان يحضر اليها كبير الخدم فيقذف بها من المنزل وان تنتشر فضيحتها حتى تملأ المدينة ، وسألت نفسها.. « أين تستطيع أن تذهب متى طردها زوجها » ؟.

وعندما فكرت في فرونسكي ، توهمت انه لا يحبها ، وانه بدأ يجدها حملاً ثقيلاً عليه ، وانها لذلك لا تستطيع ان تقدم نفسها اليه . وخيل اليها فضلا عن ذلك ، كأن الكلام الذي قالته لزوجها في اليوم السابق قد سمعه كل انسان في المدينة ، فلم تجد الجرأة على دعوة وصيفتها ، ولا على النظر في وجه ابنها .

اشتد بها الاضطراب والقلق ، والشعور بالخزي ، فدفنت وجهها بين كفيها، وهتفت من اعماق قلبها :

– يا إلهي .. ماذا اصنع ؟.

ودخلت وصيفتها في هذه اللحظة تحمل القهوة ، فصاحت أنّا :

– كلا .. كلا.. لا أريد شيئاً .

فقالت (أنوشكا) : ان سيرج ومربيته ينتظرانك .

وسمعت في الخارج صوت سيرج وهو يصيح متألماً : أماه .

فذعرت ، وسألت :

– ماذا حدث .. ماذا أصابه ؟

– الظاهر أنه سقط على درج السلم ، وجرح ركبته .

فهرولت أنّا مسرعة ، ووجدت الغلام ومربيته على درج السلم ، ولكنها

اطمأنت عندما رأت اصابته ، وقالت وهي تنظر اليه مؤنبة :
– ألم أقل لك دائماً ان تتئد في لعبك .
فأجاب في خجل : سأتئد يا اماه .
فضمته الى صدرها ، وأشرق وجه الغلام .
شعر بعطفها حين كان يتوقع تعنيفها ، فغمغم :
– أتحبينني يا اماه ؟.
يا إلهي ، هل يمكن ألا تحبه ؟
وقبّلته ، وأخفت وجهها في كتفه لكيلا يرى دموعهـــا ، ثم نقصت على عقبيها ، وهرولت الى غرفتها .

* * *

أعادها ولدها الى روعها وذكرت واجباتها نحوه كأم مخلصة على نحو ما كانت عليه في الماضي ، وسرّها أن تجـد من امومتها دعامة لقلبها ، بمنأى عن زوجها وعشيقها .
فليتركها زوجها وليهجرها عشيقها فان لها من ولدها ما يعزيها، ويحبب اليها الحياة ، وان لولدها عليها حقاً ، يجب أن يستوفيه ، ويجب عليها أن تؤديه .. قبل ان يؤخذ منها .. او يحال بينها وبينه .
نعم ، يجب أن تأخذ ولدها ، وتفرّ به من هذا الموقف المخيف .
ذلك هو الحل الأوحد .
ولكن الى أين تذهب به ؟
وأجابت في الحال على هذا السؤال :
– الى موسكو ، ولكن يجب أن أكتب اليها .
وكتبت الى زوجها بعزمها على السفر ، وانهـا ستأخذ ابنها معها ، ورجته أن يكون كريماً ويتركه لها .
ثم مزّقت الرسالة ، إذ عز عليها أن تلجأ الى كرم زوجها ، وشرعت تفكر

في صيغة اخرى .

وانها في سبيل ذلك اذ وصلتها رسالة كارنين .

قرأتها ، وأحست ببرودة تسري في جسدها .

هــــذا زوجها يعتبر اعترافها كأنه لم يكن ، ويمنحها ما تبقى من الطمأنينة والاستقرار .

وتذكرت ان زوجها كان ابداً كريماً معها ، ولكنه في الوقت نفسه ، قتل كل عاطفة في نفسها ، خلال الأعوام التي قضتها معه ، ولم يشعر يوماً بأنها بحاجة الى الحب .

وقالت تخاطب نفسها :

« أفلم احاول ، واحاول بكل قوتي ان اجد لنفسي غرضاً في الحيــاة ؟ فلم احاول ان احبه ، فلما عجزت ، حاولت ان احب ولدي ؟ ولكن جاء الوقت الذي لم أستطع فيه ان اخدع نفسي ، الوقت الذي شعرت فيه بأنني أعيش .. ويجب ان احب .

وعادت تقرأ رسالته ، انه يهددها اذا لم تستجب له ، قد ينتزع منها ولدها ، وهي لا تستطيع الحياة بدونه .

وذعرت لما خطر لها هذا الخاطر .

وبكت بكاء الأطفال .

بكت لأنها شعرت بعجزها ، وبأنها لا تستطيع ان تفعل شيئاً ، وبأن أملها في تحديد مركزها قد تبدد ، وبأن مكانتها في المجتمع لا تزال عزيزة عليها ، وبأنها لا تقوى على استبدال هذه المكانة ، بمكانة اخرى مذلة مهينة ، هي مكانة المرأة التي تهجر زوجها لتعيش مع عشيقها .

وجاءتها الوصيفة تقول ان الرسول ينتظر رداً ، وعندئذ تذكرت عشيقها فقررت أن تفزع اليه وتستشيره ، وكتبت لزوجها تقول : قد تسلمت رسالتك.

* * *

استيقظ فرونسكي مبكراً غداة يوم السباق ، فجمع أوراقه وبدأ في تصفية مركزه المالي ، وتصفية ما له وما عليه ، فوجد انـــه مدين لصانعي الثياب ، وأصحاب الفنادق والمطاعم ومنتديات الميسر بمـــا لا يقل عن سبعة عشر الف روبل ، فضلاً عن ثلاثة آلاف روبل ثمن جياد ابتاعها ، وهـــذا مبلغ لا قيمة له بالنسبة الى رجل مثله، يعتقد الجميع ان ايراده السنوي يربو على مائة الف روبل.

وقد كان ذلك هو ايراده حقاً، ولكن عاطفة الاخوة دفعته الى النزول لأخيه عن ثلاثة أرباع هـــذا المبلغ ، لتسوية الديون الثقيلة التي اجتمعت عليه منذ اقترن بالأميرة فاريا شيكوفا ، وهي ابنة نبيل اتهم بالتآمر على القيصر وصودرت أمواله وأملاكه .

غير أن مركز فرونسكي ، واسرافه ، وحياة البذخ التي ألفها والبيئة الـــتي يعيش فيها ، كل ذلك أثقل كاهل الخمسة والعشرين الف روبل التي بقيت له فراح يستعين بوالدته على رتق ميزانيته ، وأوقفت عليه والدته ، عشرين الف روبل من ايرادها الخاص .

ولما رأت والدته ، ان صلته بأنا كارنينا توشك ان تهدم مستقبله حاولت ان تردعه ، فلم يرتدع ، فقبضت يدها عن مساعدته ، وكتبت اليه تقول : انهـــا ترحب بكل ما من شأنه توطيد مركزه في الجيش والمجتمع ، ولكنها لا تشجعه على توطيد علاقة يستنكرها الناس جميعاً .

ونفر فرونسكي من استجداء امه ، ووجد في ذات الوقت انه لا يستطيـــع ان يرجع في هبته لأخيه ، فنفسه لا تطوّع له الآن أن يرجع في هذه الهبة ، إلا اذا طوّعت له ان يضرب امرأة ، او ان يسرق ، او يكذب .

كان من حسن حظ فرونسكي انه كان قـــد وضع لنفسه في الحيـــاة مبادىء لا يحيد عنها ، منها ان الرجل الشريف يجب أن يدفع دين القمار ، ولكن ليس من الضروري ان يدفع دين صانع الثياب ، وأنه لا يجب أن يكذب على رجل ، ولكن لا مانع من ان يكذب على المرأة ، وانه لا ينبغي ان يخدع احـــداً إلا الزوج ، وانه لا يجب ان يصفح عن الإهانة ، ولكن يجوز له أن يهين الغير .

وعلى ضوء هذه المبادىء .. وضع فرونسكي ميزانيته .. وقرر أن يبيع جياده ، ويستدين ، لسداد الديون التي لا مفر منها .

ثم انتقل الى ميزانته العاطفية ، فوجد أن صلته بأنا كارنينا وزوجها متناهية في البساطة والوضوح ، وانها تقع في حدود المبادىء التي وضعها لنفسه ، وسار على هديها ، فأنا كارنينا امرأة محترمة ، تحبه ويحبها ، فهو اذن صاحب الحق الأول عليها ، وليس لزوجها ان ينازعه هذا الحق إلا وسلاحه في يده .

بيد ان صلته بأنا تطورت ، منذ علم بأنها تحمل في احشائها جنيناً ، وقد دهش عندما فوجىء بهذا النبأ ، ولكنه فعل في الحال بوحي قلبه ، وضميره ، وشعوره بمسؤولية هذا التطور ، فنصح لمشيقته ان تهجر زوجها .

ولكنه ما كاد يخلو الى نفسه ويفكر في الأمر ملياً ، حتى اعترف بعقم نصيحته .

قال لنفسه : اذا هجرت زوجها ، فمعنى ذلك انها تفر معي ، فهل أنا على استعداد لترك الجيش والفرار معها ؟ وهل املك المال اللازم للرحيل بها والإنفاق عليها !

وفيما كان يفكر في كل هذا، اذا بخادم الأميرة بتسي يحمل اليه رسالة منها، تدعوه فيها الى بيتها لمقابلة أنا .

قصد فرونسكي الى بيت الأميرة بتسي ، وهو يشعر بالقلق فوجد أنا بانتظاره في الحديقة ، وهداه شعوره الى مكانها تحت احدى الأشجار .

شدّت على يده بثبات ولما رأت على وجهه علامات الانزعاج قالت :

— هل انت غاضب لأنني دعوتك ؟ لقد كان من الواجب أن أراك .

ولاحظ بدوره شحوب لونها ، وانطباق شفتيها ، فاشتد به القلق وأجاب :

— أنا غاضب ، ابداً ولكن هذا الموعد المفاجىء أقلقني .

— اذاً فاعلم اني صارحت زوجي بكل شيء وحدثته بما بيننا .

— لقد أحسنت فهذا افضل الف مرة .

وكانت تنتظر منه أن يقول لها : هيا بنا نهرب ..

وحاولت أن تقرأ في تقاطيع وجهه ما يدل على أنــه مستعد للمبارزة المنتظرة ، ولكن شيئاً في قسمات وجهه لم ينبأها عن عواطفه .

وأعطته رسالة زوجها ليقرأها ، وتناول الرسالة ولم يقرأها ، وقال :

ـ فهمت ، انني لا أطمع إلا في شيء واحـد ، وهو أن أنهي هـذا الموقف لأكرس حياتي لسعادتك .

فأجابت : ولماذا تقول لي هـذا الكلام ؟ هل تظن انني أرتاب في ذلك ، ولكن اقرأ رسالته أولاً .

فبسط الرسالة بين أصابعـه ، ولكنه قضى بعض الوقت وهو يفكر ، ولا يقرأ ..

كان يفكر بالمبارزة المنتظرة ، وفي موقفه من الزوج المهين ، وفي الفضيحـة المدوية التي سوف تصم الآذان .

وتذكر ما كان يهجس بخاطره وهو في خلوته بعيداً عن عشيقته ، حيث كان يحتكم إلى عقله ، فينذره عقله بسوء المصير :

ثم تنهد ، وقرأ الرسالة ، ونظر إلى أنا في دهشة وعجب .

فقالت له بصوت مرتجف : أرأيت أي رجل هو ؟ انه ..

فقاطعها : نعم .. نعم .. ولكنني أرى من المستحيل أن يبقى كل شيء على حاله ، كما يتوهم ، واسمحي لي بالتفكير في الأمر لتدبير حياتنا معاً .

فقاطعته : وولدي .. ألم تقرأ الرسالة ، انه يرغمني على أن أترك ولدي .

ـ أيهما أفضل ، أن تتركي ولدك أم أن تستقري في هذا الموقف المهين .

ـ كلا لا تصفه بذلك ، إن هذه الأوصاف لا أهمية لها عندي ، منذ أحببتك تبدل كل شيء بالنسبة إليّ ، حتى معاني الألفاظ .

وأخذت تبكي ، وأحس (فرونسكي) لأول مرة في حياته برغبة شديدة في البكاء ، ولكنه لم يستطع تعليل إنفعاله وتأثره .. أهو إشفاقه عليها ، وعجزه عن انقاذها من ورطتها ، أم هو شعوره بخطأه ، وبأنه كان علة شقائها ؟

وقال بصوت خافت : هل الطلاق مستحيل ؟

فهزت رأسها ولم تجب ، فقال :

– ألا يمكن أن تأخذي ولدك وتهجريه ؟

فقالت : نعم هذا ممكن ، ولكن كل شيء يتوقف على مشيئته ، وسأذهب إلى بطرسبورغ يوم الثلاثاء ، وعندئذ يتقرر كل شيء .

* * *

عادت إلى بطرسبورغ يوم الثلاثاء ، فلم تجد زوجها بانتظارها كما توقعت ، لما وقفت بها المركبة عند الباب ، قيل لها أنه في شاغل مع سكرتيره ، فبعثت تنبئه بقدومها ، وقصدت مخدعها .

وانقضت ساعة ولم يذهب كارنين اليهـا ، ثم عرفت بانصراف السكرتير ، فخشيت أن ينصرف كارنين قبل أن يراها فقصدته في مكتبه ، فلما مثلت أمامه همّ بالنهوض ، ولكنه عدل عن ذلك ، ثم احمر وجهه ، ونهض واقفاً وتناول يدها ، وقال وهو ينظر إلى جبينها وشعرها ، ولا ينظر في عينيها :

– يسرني أنك عدت .

وأجلسها على أحد المقاعد ، وجلس بجانبها ، وفتح فمه مراراً لكي يتكلم ، وفي كل مرة كانت تخونه عزيمته فيصمت .

أما هي فإنها تأهبت لهذه المقابلة ، واستعدت للومه واحتقاره ، ولكنها ما كادت تراه ، حتى أحست بالشفقة عليه .

وساد الصمت بينهما لحظة ، إلى أن قال :

– وسيرج ؟ هل هو بخير ؟

ثم أردف دون أن ينتظر جوابهـــا : إنني سأنصرف الآن ، ولن أستطيع تناول الغداء هنا اليوم .

فقالت : كان في نيتي أن أرحل إلى موسكو .

فأجاب : كلا .. كلا .. إنك أحسنت صنعاً بالقدوم إلى هنا .

وساد الصمت مرة اخرى .

وأدركت أنا ، انه لا يجد الجرأة على الكلام ، فقررت أن تبادره ، وقالت وهي تنظر إلى وجهه في ثبات :

ــ أصغ إليّ يا اليكسيس كارنين ، انني امرأة رديئة ، وزوجة أثيمة ، وقد جئت الآن ، لكي أقول لك انني لا أستطيع أن اغير من الواقع شيئاً .

فأجابها بصوت حازم ، وفي عينيه نظرة حنق وكراهة :

ــ انني أعلم ذلك ، ولكني أكرر لك ما سجلته في رسالتي ، وهو انني سأتجاهل الأمر ما بقي مكتوماً عن الناس ، وما بقي اسمي نقياً خالصاً من الأوحال . أما إذا افتضحت ، فانني أكون مضطراً الى اتخاذ الاجراءات الكفيلة بصون شرفي وسمعتي .

فقالت في خجل ، وهي تنظر اليه في خوف :

ــ ولكن الصلة بيننا لن تكون كالماضي .

واستطردت : انني لا أستطيع أن أكون زوجتك ما دمت ..

فقاطعها بضحكة باردة قاسية وقال : أكبر ظني ان الحياة التي ارتضيتها لنفسك قد أثرت في سلامة فهمك .

« إن احترامي واحتقاري الشديدين ، أعني احترامي ، لماضيك واحتقاري لحاضرك ، يجعلان المعنى الذي تبادر إلى ذهنك ضرباً من السفه والإسفاف .

فتنهدت أنّا ، وسقط رأسها فوق صدرها .

واستطرد كارنين : انني لا أستطيع أن أفهم ، كيف استطاع عقلك المريض أن يوفق بين التبجح بالإثم ، وإمكان اداء الواجبات الزوجية .

ــ حدثني في صراحة يا اليكسيس كارنين ، ماذا تريد مني ؟

ــ أريد ألا تستقبلي هــذا الرجل هنا ، وأن يكون سلوكك بحيث لا يثير شبهات الناس . هذا كل ما أريده ، وهو ليس بالكثير كما أعتقد . وفي مقابل ذلك تنعمين بكل الحقوق الزوجية دون أن تؤدي واجباتها .. والآن يجب أن أذهب .

غضب كارنين

استأنف (كارنين) و (أنـّا) حياتهما الجديدة ، فعاشا في بيت واحـد ، ولكنهما ظلا غريبين الواحد عن الآخر .

كان كارنين يقابل زوجته كل يوم حتى لا يثير الشكوك والتكهنات، ولكنه لم يكن يتناول طعامه معها في بيته .

ولم تعد (أنـّا) تستقبل عشيقها في بيت زوجها ولكنها كانت تذهب للقائه في أماكن اخرى ولم يكن الزوج يجهل ذلك .

كان الموقف لا يطاق بالنسبة اليهم جميعـاً ، ولم يكن بينهم من يطيقه يوماً واحداً ، لولا يقينهم من انه محنة مؤقتة مصيرها حتماً إلى زوال .

صبر كارنين على هذا الموقف ، لأنه كان يرجو أن تثوب أنـا إلى رشدها ، وأن يخمد غرامها آخر الأمر ، كما خمد كل غرام من نوعه .

وصبرت أنا ، لأنها كانت واثقة من ان الموقف لا بد أن ينجلي ، وان كانت تجهل كيف ومتى .

وصبر فرونسكي متأثراً بصبر أنا .

وفي منتصف الشتاء ، قضى فرونسكي اسبوعاً من اسوأ الاسابيع التي مرت به في حياته ، فقد وقع عليه الإختيار لمرافقة أمير أجنبي جاء لزيارة بطرسبرغ، وهي مهمة كان يمكن أن تروق سواه ، ولكنه شعر منها بالسأم والملالة ، سيما وقد كان الأمير شديد الاهتمام بالتوفر على فهم كل صغيرة وكبيرة تقـع تحت بصره ، شديد الحرص على غشيان جميع المسارح ودور اللهو .

وهكذا اضطر فرونسكي الى ملازمته ، وقضاء النهـار كله وشطر كبير من الليل في صحبته .

ولكن اتفق ذات مساء ان اصيب الأمير بانحراف ، فعـاد فرونسكي الى بيته مبكراً ، وهناك وجد رسالة من أنـّا ... ففضها وقرأ فيها :

« انني مريضة وشقية.. ولا أستطيع الخروج .. ولا اطيق الحياة بدونك، فتعال هذا المساء ، فقد ذهب اليكسيس كارنين الى مجلس الوزراء ، ولن يعود قبل الساعة العاشرة » .

وعجب فرونسكي ، كيف تدعوه أنا الى بيتها رغم تحذير زوجها ، ولكنه قرر الذهاب ، وبعد ان تناول طعامه ، تهالك على احد المقاعد التماساً للراحة .. ثم غلبه النعاس فنام .

ولما استيقظ ، كانت الساعة قد قاربت التاسعة ، فأصلح هندامه بسرعة .. واستأجر مركبة وقصد بها الى بيت كارنين .

ودخل وهو يقدم رجلاً ، ويؤخر اخرى ، ولم يعبأ بالدهشة الـتي ارتسمت على وجه الخادم الذي صادفه في الحديقة .

بيد انه ما كاد ينفذ من الباب ، حتى وجد نفسه وجهاً لوجه أمام كارنين ، وسقط ضوء المصباح على وجـه كارنين الشاحب المتعب ، ورأى فرونسكي في عينيه نظرة قلقة شاردة .

وأحنى فرونسكي قامته، فتحركت شفتا كارنين ، ولكنه لم ينطق بكلمة، ومس بأصابعه طرف قبعته السوداء ، ومضى كل من الرجلين في سبيله ، الزوج الى الخارج ، والعشيق الى الداخل !

واجتاز فرونسكي الردهة الكبيرة ، وفي عينيه نظرة كبرياء وغضب .

وقال يحدث نفسه : هذا موقف بديع حقاً ، لو انـه قاوم وتافح دفاعاً عن شرفه ، اذن لاستطعت ان افعل شيئاً .. أما هذا الضعف وهذه الضعة ... انه يضعني في موقف المغتصب ، ولا اريد ان أكونه .

وسمع وقع خطوات أنا وهي تسير في غرفتها جيئة وذهاباً .

وما ان وقع بصرها عليه حتى اغرورقت عيناها بالدموع وهتفت :
– كلا .. كلا .. ان هذا لا يطاق .
– ماذا تعنين أيتها العزيزة ؟
– ماذا اعني !!. انك لا تعلم كم اعاني من عذاب القلق والانتظار ... لقد انتظرتك ساعة ، وساعتين ولكن لا ... انني لا ألومك ، فلا بد انك تأخرت لأسباب خارجة عن ارادتك .
وألقت بيديها على كتفيه ، ورمقته بنظرة عميقة فاحصة ، كأنما تريد أن تشبع عينيها من طلعته ، وتقابل بينه وبين صورته كما تتخيلها في غيابه .
سألته وهي تجلس بجانبه :
– هل قابلته ؟ هذا عقابك لأنك أبطأت في القدوم .
– نعم ، قابلته ، ولكن كيف حدث ذلك .. ألم تذكري في خطابك انه في مجلس الوزراء ؟
– انه اشترك في مجلس الوزراء وعاد مبكراً .. وانصرف مرة اخرى لشأن لا أعلمه ، ولكن دعنا منه ، ماذا فعلت اليوم ، هل كنت في رفقة الأمير كالعادة .
كانت تعرف كل دقائق حياته .
– نعم .. ولكنه اصيب بانحراف اليوم ، وسيرحل غداً والحمد لله .. انك لا تعلمين كم كنت متبرماً بصحبته .
– لماذا ؟ ألم تقض الليل والنهار معه في دور اللهو والعبث ؟ وهل يطمع سائر الرجال من الحياة في أكثر من ذلك ؟
فأجاب وقد هاله تقلص وجهها وانقلاب سحنتها :
– انني طلقت اللهو والعبث منذ وقت طويل .. واؤكد لك ان هذا الاسبوع الذي قضيته في صحبة الأمير كان من أسأم الأسابيع وأشدها ملالة .
فرمقته بنظرة ارتياب قاسية وقالت :
– لقد زارتني (لويزا) اليوم .. وحدثتني عن السهرة الفاضحة التي

أقامها الأمير .

– لقد ساهمت فيها كارهاً .

فقلبت شفتها باحتقار وقالت : ومن هي المرأة الـتي رقصت في الحفلة وهي في ثوب حواء ؟.. أهي صديقتك تيريزا ؟.

– لقد قلت لك ...

فقاطعته بحدة : ما أبشعكم أيهـا الرجال ، وما أشد حرصكم على كتمان مخازيكم ، والواقع .. ماذا تحسبني أعرف عن حياتك ؟ لا شيء إلا ما تذكره لي ، ومن يدري ، اذا كنت تذكر لي كل الحقيقة .

– انك تعملين على ايلامي يا أنا ! أفلا تصدقينني ؟ ألم أقل لك مراراً انني لا أكتم عنك حتى خواطري وما يهجس في نفسي ؟

فقالت وهي تبذل جهدها للتخلص من شعورها بالغيرة :

– نعم ، نعم ، ولكنك لا تعلم كم اعاني في وحدتي ، بعيداً عنك .

* * *

خيل اليه أن أنا لم تعد كعهده بها ، وانها تغيرت خلقاً وجسداً ، وانها عندما تكلمت عن الراقصة منذ لحظة ، تقلصت سحنتها تقلصاً بشعاً .

وهكذا اصبح ينظر اليها كما ينظر الرجل الى زهرة اقتطفها فذبلت في يده ، فهو يفتش فيها عن شيء من الجمال الذي أغراه باقتطافها فلا يجده .

وقد كان يهنىء نفسه فيما مضى ، وهو في عنفوان حبه لها ، على أنه يستطيع أن ينتزع هذا الحب من قلبه اذا شاء ، ولكنه يشعر الآن ، بعد ان ضعفت حرارة حبه ، بأن بينهما عقدة جديدة لا يمكن فصمها .

وقال في لطف وهو يقبل يدها :

– كنت اظن ان شيطان الغيرة لا يؤثر عليك .

– انك لا تعلم كم قاسيت في انتظارك ، اني لا أشعر بالغيرة وأنت معي ، أما اذا ابتعدت عني ...

واحتبس الكلام في فمها ، وأشاحت بوجهها حتى لا يرى دمعة ترقرقت في عينيها .

وحاول تغيير مجرى الحديث فقال يحدثها عن كارنين :

— انه لغز غامض ولكن لا أرتاب في أنه يتألم .

فصاحت في تهكم : يتألم ؟ انه راض كل الرضى ، انني اعرفه حق المعرفة .. وأعرف غرامه بالرياء ، وحرصه على الظواهر الكاذبة .. انـــه يفهم ولكنه جامد الشعور .. وإلا هــل في استطاعة رجل يتمتع بذروة من الشعور أن يقيم في بيت واحد مع زوجته الزانية ؟

« إنه ليس رجلاً ، وليس آدمياً ، ولكنه دمية ، ولو انني مكانه ، لمزقت الزوجة التي على شاكلتي ارباً بدلاً من ان اعيش معها تحت سقف واحد ، وأقول لها (يا عزيزتي أنا) .

وكفت عن الكلام فجأة ، وتغيرت ملامحها ، واستحال غضبها وتهكمها ، الى هدوء ورفق ، وارتسمت في عينيها نظرة حنان .

ولم يفهم فرونسكي سر هذا الانقلاب .

أما هي فكانت تشعر بالحياة الجديدة التي تنبض في احشائها .

* * *

لما عاد كارنين مساء الى بيته ، كان حانقاً أشد الحنق على زوجته الـــتي ضربت بتحذيره عرض الحائط ، ولم تحترم الشرط الوحيد الذي فرضه عليها ، وهو ألا تقابل عشيقها في بيته ، فأصبح لزاماً عليه أن يقتص منهـــا ، وأن ينفذ تهديده فيطلقها ، وينتزع الغلام منها .

وقضى ليله لم يغمض له جفن ، فلما أصبح الصباح أسرع الى مخدعها ، وهو في أشد حالات الغضب والحقد ، فلم يقل لهـــا : (طاب صباحك) وقصد لتوه الى مكتبها ، وتناول المفاتيح ، وفتح الدرج فهتفت : ماذا تريد ؟

— اريد رسائل عشيقك .

— أنها ليست هنا .

وأغلقت الدرج ، فدفعها بغلظة وتناول صندوقاً يعلم أنها تحفظ فيه أوراقها الهامة ، فأرادت انتزاع الصندوق منه ، فدفعها عنه وقال :

— إجلسي ، فان لي حديثاً معك ، لقد أنذرتك بأن لا تقابلي عشيقك في هذا البيت .

فأجابت متلعثمة : انني قابلته فقط لكي .

ولم يسعفها خاطرها على التماس عذر ، فقال كارنين :

— لا أريد أن أعرف تفاصيل الأسباب التي تحمل المرأة على مقابلة عشيقها .

وضايقتها غلظة زوجها ، وأثارت حنقها فصاحت :

— هل بلغ من جمود عاطفتك ألا تشعر بأنك تهينني ؟

فأجاب : إنما يهان الرجل الشريف ، أو المرأة الشريفة ، أما أن يقول الانسان للص انه لص ، فإنه لا يكون قد فعل أكثر من أنه قرر الحقيقة .

— إنني لم أرَ منك هذه القساوة من قبل .

— أقساوة أن يترك الرجل لامرأته مطلق الحرية ، وأن يهيىء لها من بيته مأوى شريفاً تتحصن فيه من عارها بشرط واحد هي أن تصون شرف هذا المأوى ؟ أهذه قساوة ؟

فصاحت أنا في غضب :

— إنها أسوأ من القساوة ، إنها ضعة .

وهمت بالإنصراف فأمسك ساعدها بعنف حتى تركت أصابعه أثرها في لحمها ، وأجلسها على المقعد عنوة ، وهتف :

— ضعة ! ما دام قد راقك أن تنطقي بهذه الكلمة ، فانني أقول لك ان الضعة هي أن تهجر المرأة زوجها وولدها من أجل عشيقها ثم تطوّع لها نفسها أن تأكل خبز هذا الزوج .

لم تجرؤ على أن تقول له في هـــذه اللحظة ما قالته في اليوم السابق من أن فرونسكي هو زوجها وانه — أي كارنين — دخيل على البيت ، وزائد عن الحاجة .

كانت تشعر أنه على حق ، وانه لم يقل إلا صواباً .

قالت بصوت خافت : ليس في استطاعتك أن تصف حالي بأسوأ مما أعرفه وأشعر به .

ولكن لماذا تقول لي كل ذلك ؟

– لماذا أقول لك كل ذلك ، لمـاذا ؟ لتعلمي أنك لم تنزلي على إرادتي ، ولم تصوني شرف بيتي ، وانني سأتخذ الاجراءات اللازمة لوضع حد لهذا الموقف ، بأسرع مما تتصورين أو يتصور عشيقك .

فغمغمت : نعم ، يجب وضع حد لهذا الموقف .

فقال في تهكم وحقد : طبعاً ، لكي تشبعي الشهوات البهيمية التي ..

فقاطعته : يا اليكسيس كارين، ليس من الكرم ، ولا من الرجولة أن تضرب امرأة صريعة .

– هذا كلام طيب ، ولكنك لا تفكرين إلا في نفسك ، أما آلام الرجـل الذي كان زوجك ، فانك لا تقيمين لها وزناً .. نعم لا يهمك آلام هذا الرجل، ولا يهمك أن حياته كلها قد تقوضت وانهارت تحت قدميه .

ولأول مرة في حياتها ، أحست بالشفقة عليه ، وأوقفت نفسها موقفـه ، وأسفت له ، ولكن ماذا في استطاعتها أن تفعل ؟

أطرقت برأسها وهمست :

– وا أسفاه ، ليس في مقدوري أن اغير شيئاً .

ولكنه لم يسمع همسها ، واستطرد :

– انني جئت لكي أقول لك انني سأرحل إلى موسكو غداً ، ولن أعود إلى هذا البيت، وستعلمين نواياي من المحامي الذي سأضع بين يديه قضية الطلاق، وسأرسل ولدي للإقامة في بيت أختي .

فغاص قلبها بين جنبيها ، وقالت وهي تنظر في وجهه بجدة :

– انت تريد الإنتقام مني ، بانتزاع ولدي ، ولكنك لا تحبه فاتركه لي .

– نعم .. انني فقدت حق عطفي على ولدي لصلته بكراهيتي لك ونفوري

منك ، ولكني سأحتفظ به رغم ذلك .. وداعاً .

وسار إلى الباب يريد الإنصراف ، ولكنها أسرعت في أثره وهي تقول :

– يا اليكسيس كارنين ، اترك لي ولدي ، انني لا أطلب الصفح والمغفرة ، ولكني أرجو قليلاً من الرحمة .

وأحست بقلبها يذوبه لمجرد التفكير في فراق ولدها ، وسال ذوب قلبها دموعاً ..

– انك لا تستطيع ، ولا القانون يستطيع ان يجعل من ولدي شيئاً آخر غير قطعة من لحمي وذات نفسي .

– لئن يكون (سيرج) بغير أم خير له من أن تكوني أمه .

ففقدت ثباتها وطمأنينتها ، وصاحت متوسلة :

– انني أضرع اليك يا اليكسيس كارنين ، اقض في أمري بما شئت ولكن لا تفعل هذا ، لا تفعل هذا ، فانه أهول قصاص .

فأشاح عنها بوجهه وقال :

هذا كلام فارغ ، كان يجب ان تفكري في العواقب ، قبل ان تلوثي اسمي واسم ولدك بأوحالك .

قرر كارنين رفع دعوى طلاق في موسكو ، لأن من يعرفونه فيها أقل عدداً من الذين يعرفونه في بطرسبورغ .

فلما وصل إلى موسكو قصد أحد كبار المحامين واستشاره في قضيته وأعلمه أنه يريد طلاق زوجته بالطرق القانونية شرط أن يكون له حق الاحتفاظ بولده .

وبعد أن بحث القضية مع المحامي ودعه على أن يعود اليـــه بعد أن يدرس الأمر بنفسه .

فلما احتواه الشارع شاهـد (اوبلونسكي) شقيق زوجته فحاول الهرب منه ، ولكن هذا لحقه وعتب عليه أن يزور موسكو ولا ينبئه بزيارته ، وقال له :

– هل تعلم ماذا سنفعل غداً ؟ إننا سنشترك في الحفلة الكبرى التي يقيمهـا البرنس شرباتسكي بمناسبة خطبة إبنته كاترين لميشيل ليفين ، ويجب أن تأتي معنا .

فاعتذر كارنين بأنه سيبرح موسكو غـــداً مساء في مهمة رسمية ، فدعاه اوبلونسكي لتناول الغـداء معه في منزله ، فرفض كارنين بخشونة ، فلـما سأله اوبلونسكي عن السبب ، أعلمه انه شرع في اتخاذ الاجراءاتُ القانونية لطلاق اخته (أنـّا) .

فذعر (اوبلونسكي) لهذا الخبر ، وترنح من هول الصدمة ، واستند إلى الجدار ليمنع نفسه من السقوط .

صاح وقد اضطرب صفاء عينيه :

— يا إلهي .. ماذا تقول يا اليكسيس كارنين ؟

— انني أقول الحقيقة .

— معذرة ، ولكنني لا أستطيع أن أصدقك .

ففكر كارنين لحظة ، ووجد ان من حق اوبلونسكي عليه أن يعرف بعض التفاصيل ، فقال :

— نعم .. إنني ألفيت نفسي أمام ضرورة مؤلمـة ، وهي ضرورة السعي إلى الطلاق .

— أصغ إليّ يا اليكسيس كارنين ، إنني أعرفك كرجل حصيف منصف ، وأعرف أنـّا كأنموذج للمرأة الكاملة ، ورأيي فيهـا لا يتبدل ولهذا لا يمكن أن أصدق .

لا بد ان هناك بعض سوء التفاهم .

— آه .. ليت الأمر كان مقصوراً على سوء تفاهم !!

— صبراً لحظة ، لقد فهمت ، إنما ينبغي على الانسان ألا يتعجل .

فأجاب كارنين ببرود : إنني لم أتعجل ، والانسان لا يستطيع في مثل هذه الحالة أن يطلب رأي أحد ، وقد فكرت في الأمر ملياً ، وحزمت رأيي .

فتنهد اوبلونسكي وقال : هذا مخيف ، ولكنني لو كنت مكانك لفعلت شيئاً يا اليكسيس كارنين ، وإني أرجوك أن تفعله ، إنك لم تشرع في اجراءات الطلاق ، أليس كذلك ؟؟ حسناً .. إذن أرجوك أن تفعل شيئاً واحداً ، هو أن

تعالج الموقف مع زوجتي داريا ، انها تحبك ، وتحب انـّا كأختها ، وهي امرأة عجيبة ، بعيدة النظر ، فتحدث اليها يا كارنين . إني أتوسل اليك .

ففكر كارنين ملياً .. ونظر اليه اوبلونسكي بعينين ملؤهمـــا العطف والاخلاص وسأله :

ــ انك ستأتي لمقابلتها غداً .. أليس كذلك ؟

فلما شاهد كارنين تأثره وعده بزيارة زوجته (داريا) في نهار الغد ..

* * *

تحدث كارنين الى (داريا) بما يعتزمه من طلاق زوجته لخيانتها له، ولكنها لم تصدقه ، وقالت له :

ــ لا شك أنك مخطىء ..

فحدثها بالقصة من أولها الى آخرها ، وقال لها :

ــ عندما شككت كنت لا أزال أرجو ، وآمل .. أما الآن فلا أمل ولا رجاء .. ولا مفر في ذات الوقت من الشك في كل شيء .. وقد بلغ من شقائي أنني أصبحت أمقت ولدي .. لانني أعتقد في بعض الأحيان أنه ليس ولدي .. إنني تعس يا داريا .

ولم يكن بحاجة الى ذكر هذه العبارة الأخيرة .. لأنها رأت على وجهـه آية الشقاء والتعاسة ، وشعرت بالشفقة عليه وتزعزع يقينها في براءة صديقتها أنـّا ، وهتفت تقول :

ــ هذا مخيف .. هذا مخيف .. ولكن هل صحيح أنك قررت طلاقها ؟

ــ وهل أستطيع أن أفعل غير ذلك ؟

فغمغمت والدموع تترقرق في عينها :

ــ نعم .. نعم .. في استطاعتك أن تفعل .

ــ إن أهول ما في هذه النكبة .. أن الإنسان إذا نكب بخسارة أو وفاة ، أمكنه أن يصبر على نكبته ويصمت ولا يفعل شيئاً . أما في هذه النكبة فإنه يتعين عليه أن يفكر .. ويعمل .. ويتحرك ، ليخرج من موقفه المهين .. لأن

من المستحيل أن يعيش ثلاثة تحت سقف واحد .

– إنني فهمت . إنني فهمت .

وغلبها الحزن .. فسقط رأسها فوق صدرها .. وبقيت لحظة لا تتكلم .. ثم رفعت رأسها فجأة .. وقالت وهي تعقد يديها فوق صدرها كمن يبتهل ..

– ولكن صبراً .. إنك رجل تحترم الدين .. والدين يوحي بالرحمة .. ففكر فيها .. ماذا يكون أمرها إذا تخليت عنها ، وقذفت بها الى الحضيض ؟.

– إنني فكرت في ذلك يا داريا .. وفكرت كثيراً .

واحمر وجهه خجلاً وخزياً .. واستطرد :

– نعم .. إنني فكرت في مصيرها ، عندما صارحتني بعارها وفضيحتي . وفكرت كذلك في إنقاذها .. فتركت كل شيء على حاله .. وهيأت لها فرصة ذهبية .. لكي تقلب صفحة جديدة في سفر حياتها . ولكن ماذا كانت النتيجة؟ إنها ضربت عرض الأفق مرة اخرى بأبسط واجبات الحذر واللياقة .. وجلبت عاراً صارخاً على البيت الذي أردت أن يستر عارها .

« إن الانسان يستطيع أن ينقذ شخصاً لا يرغب في الهلاك . أما إذا فسدت طبائع الشخص .. حتى أصبح يرى في الهلاك نجاته .. فماذا يكون عمله » ؟

فأجابت داريا : كل شيء إلا الطلاق ..

– وماذا تعنين بكل شيء ؟

– كلا .. كلا .. هذا مخيف .. إنك تعرف قوانين الكنيسة .. وتعلم أنها إذا طلقت .. فلن تكون بعدئذ زوجة أحد .. فأي عار .. وأي دمار !!

فهز كارنين كتفيه وقال : وماذا أستطيع أن أفعل ؟

وساد الصمت قليلاً .. ثم قال كارنين :

– مهما يكن من أمر فإنني أشكر لك عطفك .. واهتمامك .. واعتذر عن استئناف الحديث .. لأنه يتعين عليّ أن أبرح موسكو هذه الليلة وسأعود اليها بعد ثلاثة أيام . عندما أفرغ من مهمتي .

– صبراً لحظة اخرى يا كارنين .. لا تجلب عليها الدمار .. صبراً لحظة ..

ودعني احدثك عن نفسي .

« انني تزوجت .. فأثم زوجي وخانني .. وأردت في ثورة الغضب والغيرة أن أهجره .. ولكني رجعت الى صوابي .. وبفضل من ؟ بفضل أنــّا .

« ان أنــّا أنقذتني .. وهاأنذا أعيش سعيدة بأولادي .. وها هو زوجي قد شعر بخطئه ، وندم على ما فرط منه .

« انني عفوت .. فيجب أن تعفو يا اليكسيس كارنين .. »

فأصغى اليها كارنين .. ولكنه لم يتأثر بكلامهـــا .. فإن مرارة مقابلته الأخيرة مع زوجته كانت لا تزال تمضه وتملأ فمه .

– كلا .. ليس في استطاعتي أن أعفو .. ولا اريد وليس من الخـــير أن أعفو .

« انني عملت ما يمكن عمله من أجـل المرأة .. ولكنها داست كل شيء في الوحل .. الذي هو جزء من طبيعتها .

ثم نهض وهو يقول :

– معذرة اذا كنت قد أزعجتك .. انني أعلم أن لدى كل انسان من همومه ما يكفيه .

– ٨ –

الانتحـــار

عاد كارنين الى موسكو بعد ثلاثة أيام للاتصال بالمحامي والاتفاق معه على قضية الطلاق .

ولكنه لم يكد يتناول طعامه حتى حمل اليه خادم الفنـدق برقية باسمه .. ففضها فدهش حين وجد أنها من زوجته .

وقرأ فيها « انني اموت ، وأضرع اليــك أن تأتي .. لن أنعم حتى بالموت دون صفحك .

وقلب شفته باحتقار ثم قال لنفسه :

– هب أن هذا صحيح .. وأنها أحست بدنو الموت فثابت الى رشدها .. وصحت عزيمتها على التوبة .. وطلب المغفرة .. وانني امتنعت عن تلبية دعوتها؟ « أفلا يكون ذلك قسوة .. تثير عليّ نقمة الناس ؟

وقرر أن يعود الى بطرسبرغ وأن يرى زوجته .. فاذا وجد أنها خدعته.. رجع أدراجه دون أن يقول شيئاً .. أما اذا وجدهـا مريضة حقاً .. وطلبت أن تراه قبل موتها .. فانه يراها .. ويغفر لها .

وإذا وصل بعد فوات الوقت .. فإنه يؤدي واجبه الأخير حيالها .

فلما وصل الى منزله قابله البستاني فسأله :

– كيف حال سيدتك ؟

– إنها وضعت أمس بخير ..

فجمد في مكانه ، وجمد الدم في عروقه ، وتمنى من كل قلبه لو تموت ..

وسأله : وصحتها ؟

– سيئة جداً .. والطبيب يلازمها منذ أمس ..

فقال كارنين وقد انبعث أمله في موتها :

– احمل حقائبي من المركبة ..

ودخل المنزل وسأل الخادم : من هنا ؟

– الطبيب والمولدة والكونت فرونسكي .

وخرجت المولدة من مخدع (انـّا) في تلك اللحظة فلما أبصرته هتفت :

– حمداً لله على أنك عدت .. إنها لم تتكلم عن أحد سواك ..

ونفذ كارنين الى غرفة الثياب المؤدية الى المخدع ، وهنـــاك رأى فرونسكي

جالساً على أحد المقاعد ، ورأسه بين يديه ، وهو يبكي ..

وسمع فرونسكي وقع أقدام فرفع رأسه ، فأبصر كارنين أمامه ، فجمد في مكانه ثم وقف وقال :

— إنها تموت . ولا أمل للطبيب في نجاتها .. وأنا رهن إشارتك .. ولكني أضرع اليك أن تدعني هنا ..

وأشاح كارنين بوجهه ، وذهب الى مخدع زوجته فرآها ممدة في فراشها وهي محتقنة الوجه ، تصرخ قائلة :

— إنه لن يرفض الحضور .. إنه طيب القلب .. كريم الخلق .. ما هـذا الجو الخانق .. اريد جرعة ماء .. ولكن أين الطفلة .. اذهبوا بها الى المربية انه سيأتي وسيؤلمه أن يراها .

فقال الطبيب وهو يبلل شفتيها بالماء :

— انه جاء يا أنـّا كارنينا .. ها هو اليكسيس كارنين ..

ولكنها لم تر زوجها .. ولعلها لم تسمع كلام الطبيب .

قالت بذلك الصوت الرنان الغريب :

— ولكن دعوني ارى طفلتي .. انه لم يأت بعد . انتم تقولون إنه لن يغفر لي .. لأنكم لا تعرفونه .. لا أحد يعرفه سواي .. وبحسبكم ان تنظروا الى عينيه .. انهما كعيني سيرج .. ولهذا لا اجسر على النظر في عيني ولدي .. هل تناول سيرج طعامه ؟

وفجأة .. وقع بصرها على كارنين .. فانكمشت في مكانها ، ولعلها أحست بالخوف والذعر .. لأنها قالت على الأثر :

— كلا .. كلا .. انني لا اخشاه .. ولكنني أخشى الموت .. تعـال يا اليكسيس كارنين .. اقترب مني .. يجب أن اسرع .. لأن الموت يقترب مني .. ولأنني سأفقد الرشد عما قليل .. وعندئذ ينتهي كل شيء .

« انا الآن ارى كل شيء .. وافهم كل شيء .. كل شيء .

وهنا ارتسمت في عيني كارنين نظرة ألم .. فتناول يد زوجته .. وأراد ان

يقول لها شيئاً .. ولكن فكه الأسفل ارتجف .. ولم ينطق بكلمة .

وعندما نظر الى زوجته .. رأى في عينيها حناناً لم يره فيها قبلاً .. فاشتد ألمه .. ويأسه ..

قالت انـّا : صبراً .. صبراً .. ماذا كنت اريد أن أقول ..؟

وصمتت .. كأنما لتستجمع خواطرها ، ثم استطردت :

– نعم .. أردت أن اقول لك انني أموت .. وانني اعرف ذلـــك .. ولست أطلب إلا شيئاً واحداً .. هو صفحك .

وهنا استحال ألم كارنين .. الى شعور بالطمأنينة لا عهد له به من قبـل .. ووجد نفسه يفكر على الرغم منه في حكمـــة الكتاب المقدس : « اعف عن أعدائك ، وأحبب من يكرهك » . وامتلأ قلبه بجمال هـذا الحب .. وامتلأت نفسه بلذة هذا العفو .. فانهار على ركبتيه .. وأسند وجهه على يدها الملتهبة .. وبكى بكاء الأطفال ..

وأحاطت أنـّا رأسه الأصلع بساعدها الجميل .. وهتفت وفي عينيها نظرة فوز وانتصار :

– ألم أقل انه سيغفر ويعفو ؟؟ ولكن اين الآخر ؟ ولماذا لا يأتي ؟

وصاحت تدعو فرونسكي بقولها : تعال وصافحه .

فدخل فرونسكي .. وما أن وقع بصره على عشيقته .. حتى اخفى وجهه بين كفيه .. فصاحت به :

– اكشف عن وجهك .. وانظر اليه .. انه ملاك ..

ولكن فرونسكي لم يبد حراكاً .. فصاحت انـّا بزوجها :

– اكشف عن وجهه يا اليكسيس كارنين .. انني اريد أن اراه ..

فسار كارنين الى حيث كان فرونسكي .. ورفع كفيـــه عن وجهه .. المتألم الذليل ..

قالت أنـّا : صافحه .. واصفح عنه ..

فبسط كارنين يده .. دون ان يقوى على حبس دموعه ..

قالت بصوت خافت :

– شكراً لله .. شكراً لله .. أستطيع الآن ان استقبل الموت ..

* * *

واشتدت عليها وطأة الحمى .. فقضت يومها وهي تهذي ..

وحول منتصف الليل .. ضعف نبضها .. وراح الطبيب ينتظر النهـاية في اية لحظة ..

وانصرف فرونسكي .. وعـاد في الصباح للاستفسار .. فاستقبله كارنين بنفسه .. وذهب به الى غرفة الثياب ، وقال له :

– ابق هنا .. فقد تطلب رؤيتك .

وفي اليوم الثالث .. كانت انـا لا تزال على حالها .. مما جعـل الطبيب يرجو خيراً .

وفي ذلك اليوم .. قصد كارنين الى غرفة الثيـاب .. حيث جلس فرونسكي .. فأغلق الباب المؤدي الى مخدع انـا .. وجـاء بمقعد .. وجلس امام فرونسكي .

وخطر للعشيق ، ان الزوج يريد تصفية الحساب ، فبادره بقوله :

– أصغ إلي يا اليكسيس كارنين ، انني عاجز عن التفكير ، وعـاجز عن الفهم ، فدع الحديث الآن ، فان الموقف إذا كان يؤلمك مرة ، فانه يؤلمني ألف مرة .

وهمّ بالنهوض ، ولكن كارنين أمسك بيده وقال :

– أرجوك أن تصغي إلي ، إذ يجب أن اوضح لك مشاعري التي اهتديت بها ، وسأهتدي بها في المستقبل حتى لا تسيء فهمي .

« أنت تعلم أنني اعتزمت الطلاق ، واتخذت فعلاً بعض الاجراءات في هذا السبيل ، ولكنني لا أكتمك انني كنت مع ذلك متردداً ، رغم شعوري بالألم ، ورغبتي في الإنتقام .

« وقد تسلمت البرقية ، وعدت ، بنفس الشعور ، وبنفس الرغبة مضافاً اليها الأمل في موتها .

ولكن ، وتردد لحظة ، ثم استطرد :

– ولكني رأيتها ، وعفوت عنها ، وأرشدتني لذة العفو إلى واجبي .

« انني عفوت عن كل شيء ، وسأدير خدي الأيسر ، لأنني صفعت على خدي الأيمن ، وسأعطي قميصي ، لأن ردائي أخذ مني ، وفقط أضرع الى الله ألا أفقد لذة العفو .

وامتلأت عيناه بالدموع ، فدهش فرونسكي ، وجمد في مكانه .

واستطرد كارنين :

– ذلك هو موقفي ، وفي استطاعتك أن تدفعني بقدمك في الوحل ، وأن تجعل مني سخرية الناس ، ولكني لن أتركها ، ولن أعتب عليك .

« ذلك هو واجبي ، بكل حدوده .

« يجب أن أبقى الى جانبها وسأبقى ، وإذا أرادت أن تراك فسأنبئك ، فاذهب الآن الى بيتك واسترح ، فذلك خير لك .

ونهض واقفاً ، والعبرات تخنقه ، فوقف فرونسكي أيضاً ، ونظر في وجهه طويلاً .

لم يستطع أن يفهمه ، ولكنه شعر بأنه أمام صرح شاهق ليس في استطاعة شخص مثله أن يسمو اليه ، أو يتغلغل في أعماقه .

وخرج فرونسكي مترنحاً ، ووقف بالباب الخارجي ، شارد اللب مضعضع الحواس . .

حاول أن يفهم أين هو ، والى أين يذهب .

كان يشعر بالخزي ، والخجل والمذلة ، بغير أمل في تطهير نفسه من ذلك كله ، ويحس بأنه قد طرد من البورة الموحلة ، التي كان يخوضها بكبرياء وصلف .

وبدت له جميع صفاته ، وأعماله ، ومبادئه في الحياة ، بكل ما فيها من رياء وزيف .

ورأى ان ذلك الزوج المخدوع .. الذي طالما نظر إليه كما ينظر إلى مخلوق وضيع حقيق بالرثاء .. أو إلى عقبة مضحكة عارضة لا ضرورة لها .. رأى ان هذا الزوج أبعد ما يكون عن صفات الضعة والقسوة والنذالة التي كان ينسبها إليه .. وإنه أنبل منه .. وأكرم .. وأسمى .. وانهما قد تبادلا الأوضاع .. فأصبح كارنين عظيماً بكرمه وإنكار ذاتـــه .. وأصبح هو وضيعاً بخيانته .. وإثمه .. ونذالته .

* * *

وعاد إلى بيته .. وتمدد في فراشه دون أن يخلع ثيابه .. ولكن لم يغمض له جفن رغم أنه قضى ثلاث ليال لم يتذوق في خلالها طعم النوم .

أخــذ يفكر .. ويستعرض ذكرياته .. حتى كلّ عقله .. فقال وهو يتقلب كالملسوع :

– كلا .. يجب أن أنام .. ويجب أن أنسى .

ولكن الخزى والمذلة والعار . وشعوره بضعته . وعظمة كارنين . وبــأن صلته بأنـّا قد انتهت إلى هذه النهاية المهينة .. كل ذلك كان يلهب دمه . وينهش في قلبه . فإن انين الحيوان الجريح .

ودوى في أذنيه صوت كارنين وهو يقول :

– « وفي استطاعتك أن تدفعني بقدمك في الوحل . وأن تجعل مني سخرية الناس » .

ثم صوت أنـّا وهي تصيح :

– « اكشف عن وجهك .. وانظر إليه .. انه ملاك » .

وتصور موقفه .. وهو جالس يبكي .. ووجهه دفين بين كفيه فزاد شعوره بالخجل .. وهتف بصوت مرتفع :

– ما معنى كل هذا . هل جننت ؟ ربمـــا ؟ وإلا لماذا يجن الناس .. ولماذا يقتلون أنفسهم .. كلا .. يجب أن أنام .

ولكنه لم ينم .. بل استوى جالساً في فراشه وقال :
– بل يجب أن افكر في موقفي .. وأرى ماذا بقي لي .
وفكر كيف تصبح حياته بغير أنّا .
ثم فكر في الجيش .. والمجتمع .. وفي مطامعه ومستقبله .
واضطربت عواطفه .. وكلّ عقله عن التفكير .. فنهض واقفاً .. وأخذ يسير في الغرفة على غير هدى ، ويقول بصوت مرتفع :
– هكذا يجن الناس .. وهكذا يقتلون أنفسهم .
واغلق الباب .. وتناول غدارته وصوبها إلى صدره .
وأطلق النار .

– ٩ –

توبـــة كاذبة

لم تمت (أنّا) . وشفي فرونسكي من الجرح الذي أصابه بعد أن أطلق الرصاص على نفسه ، وبكي كارنين لبكاء زوجته وحزنها ، كما اعتاد أن يبكي كلما رأى آلام المتألمين ، ودموع الباكين .. وصفح عنها ، وغفر لفرونسكي ، وشعر بالشفقة على ولده ، ولام نفسه على تنكره لهذا الولد وإهماله .

أما الطفلة الصغيرة فإن شعوره نحوها كان مزيجاً من الشفقة والحب والحنان. ولاحظ أنها أهملها ونسيها الجميع أثناء مرض امها ، فشعر نحوها بالحنان ، وراح يقضي إلى جانب مهدها اللحظات التي يستطيع اختلاسها من وقته .

كان يحس بأنه في سلام مع نفسه ، ومع الجميع .. ولكنه كان يشعر أحياناً بأن موقفه هذا قد حيّر الناس ، الذين كانوا ينتظرون منه أن يفعل شيئاً .

وفي ذات يوم عـاد كارنين إلى بيته ، وقصد مخدع زوجته ، ولم يخطر له أن يسترق السمع من وراء الأبواب ، ولكن حدث أنه ما كاد يقترب من باب المخدع حتى سمع صوت (بتسي) تطلب من زوجته السماح لفرونسكي بزيارتها بعد أن قرر الرحيل من بطرسبورغ وختمت حديثها قائلة :

— وأنا واثقة ان زوجك لن يحرم عليك استقباله أن اليكسيس كارنين ارفع من هذا .

فأجابت (أنـا) بصوت يدل على الانفعال :

— إنني لا أرفض من أجـل زوجي ، ولكني أرفض من أجل نفسي .. وأنا لا أرغب في مقابلته .. فلنترك هذا الحديث .

— ولكن ليس أقل من أن تقولي كلمة وداع .. لرجل أوشك أن يقتل نفسه من أجلك .

— لهذا فقط لا أرغب في مقابلته .

وسعل كارنين ودخل إلى مخدع زوجته ، وحدثته (انا) برغبة فرونسكي في وداعها ، وانها ترفض مقابلته .

فاستدركت (بتسي) مصححة :

— بل قلت يا عزيزتي أن الأمر موكول لإرادة الكسيس كارنين .

فصاحت (انا) : كلا لا ازيد مقابلته .. فذلك قد يؤدي .

وصمتت ونظرت إلى زوجها .. وحاولت (بتسي) اقناع كارنين باستقبال فرونسكي قبل سفره .. ولكن هذا قال لها :

— ان زوجتي هي صاحبة الحق في ان تستقبل من تشاء .

* * *

وبعد ان ذهبت (بتسي) جاء اوبلونسكي لزيارة شقيقته فوجدها في حالة عصبية متوترة ، وعرف منها أنها مع اعترافها برقـة زوجها وكرم اخلاقه تمقته لهذه الاخلاق نفسها .

واخبرته انها تفضل الموت على هذه الحياة التي لم يعد لهـــا معنى عندها .. وهتفت تقول :

– لقد فكرت .. وفكرت .. فوجدت انه لا يوجد سوى .

وأدرك انها تريد ان تذكر كلمة (الموت) مرت اخرى فقاطعها .

– كلا .. اصغي اليّ .. انك لا ترين موقفك كمـــا أراه .. دعينا نبدأ من البداية . انك اقترنت برجل يكبرك في السن عشرين عاماً .. واقترنت بـه على غير حب .. وقبل ان تعرفي الحب .. وقد كان ذلك خطأ .

– بل كان خطأ جسيماً .

– ولكن هذا الخطأ .. قد اصبح حقيقة واقعة .

ونظر إلى انا .. ولكنها لزمت الصمت .. فاستطرد :

– وقد علم زوجك بما هنالك .. وغفر لك .. أليس كذلك ؟

« والآن دعيني اسألك : هل تستطيعين ان تعاشري زوجك بعد الآن ؟ وهل تريدين ذلك ؟ وهل هو يريد ذلك ؟

– لا اعلم .. لا اعلم .

– ولكنك قلت انك لا تطيقينه .

– كلا .. لم اقل ذلك .. انا اسحب هـذه الكلمات .. انني لا اعلم شيئاً .. ولا افهم شيئاً .

– حسناً .. دعيني .

– انــك لا تستطيع ان تفهم .. انا اشعر كأنني اسقط في هوة عميقة .. ولا احاول ولا استطيع ان انقذ نفسي .

– لا بأس .. سنضع شبكة تتلقفك قبل ان تصلي الى قرارة الهوة.. ولكن هل افهم من حديثك انك لا تستطيعين التعبير عن شعورك واغراضك ؟

– ليس لي غرض على الإطلاق .. إلا ان ارى نهاية لهذا الموقف .

– ثقي ان زوجك يشعر بمثل شعورك .. ويتألم مثل المك .. فلمـاذا يستمر هذا الموقف .. بينما تستطيعان انهاءه بالطلاق .

فهزت رأسها ولم تجب .. ولكنه رأى من بريق عينيها .. انها لا تجيب .. لأنها تعتقد انه يتكلم عن سعادة مستحيلة .

فقال انني آسف لكما .. واكون سعيداً إذا وفقت إلى حل هـــذه المشكلة المعقدة .. انني سأذهب إليه .

ونهض .. فنظرت إليه انسّا بعينين لامعتين .. ولكنها لم تنطق بكلمة .

وكان كارنين قد عاد الى عمله بعد ان استفسر عن زوجته .. فذهب إليه اوبلونسكي .. في مكتبه وقال له :

– إنني لا اريد ان اتحدث إليك عن اختي .. وعن موقفكما .

فابتسم كارنين في حزن .. ونظر إلى اوبلونسكي طويـلاً .. ثم تناول من فوق المكتب رسالة كان يكتبها .. وقدمها إلى اوبلونسكي وهو يقول :

– أظن انك تريد ان تتحدث إليّ في هـــذا الموضوع ؟ انها تبرم بوجودي أمامها .. وبحديثي .. فآثرت ان اكتب إليها .

فذهل أوبلونسكي ، ونظر في حيرة الى العينين المتعبتين اللتين تطلان من وجه كارنين .

ثم ألقى ببصره على الرسالة ، وقرأ فيها ما يلي :

« لقــد شعرت بأن وجودي مقيت الى نفسك ، وعزّ إليّ أن أعلم ذلك ، ولكن تلك هي الحقيقة التي لا مفر منها .

« انني لا ألومك ولا أعتب عليك ، وأشهـد الله علي انني حين رأيتك على فراش المرض ، قد قررت بكل قوى نفسي أن أنسى كل ما كان ، لكي نبدأ حياة جديدة .

« واني لست نادماً ، ولن أنــدم على فعلت ، وما أردت إلا خيرك وانقاذ روحك ، ولكني أرى الآن انني لم أوفق فيما أردت .

« فأنبئيني ماذا يجلب لك السعادة الحقيقية وراحة الضمير ؟

« سأجيبك الى ما ترومين ، وأجعل مصيري رهناً بإرادتك وانصافك » .

* * *

قرأ اوبلونسكي الرسالة في دهشة ، وردها الى كارنين ، ونظر اليه طويلاً ، ولم يعرف ما يقول .

وساد بين الرجلين صمت طويل مؤلم لكليهما .

قال كارنين وهو يشيح بوجهه :

— هذا ما أردت أن أقوله لها :

فغمغم اوبلونسكي بصوت تخنقه العبرات :

— نعم .. نعم .. لقد فهمتك .

قال كارنين : يجب أن أعرف رغباتها .

— يخيل إلي انهـا لا تستطيـع أن تفهم موقفها ، انها محطمة ، ان كرمك حطمها ، ومتى قرأت هذه الرسالة فلن تستطيـع ان تقول شيئاً ، ولن تستطيـع إلا ان تخفض رأسها .

— نعم.. ولكن في هذه الحالة كيف يمكن التفاهم ، وكيف اعرف رغباتها ؟

— إذا سمحت لي بإبداء رأيي ، قلت لك ان الأمر موكول اليـك ، وانت الذي يجب ان تفكر في إنهاء هذا الموقف .

— إذن أنت تعتقد انه يجب إنهاء الموقف ؟ ولكن كيف ؟ انني لا أجـد مخرجاً ..

— بل يوجد مخرج من كل مأزق ، انك اردت ذات مرة ان تطلقها ، فإذا كنت تشعر بأن سعادتكما معاً لا تتحقق إلا ..

فقاطعه كارنين : ان تعريف السعادة يختلف باختلاف وجهات النظر ، ومع ذلك فانني على استعداد للموافقة على اي شيء ، ولا اريد شيئاً ، فأي مخرج تقترح ؟.

فأجاب اوبلونسكي ، وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة :

— أعتقد ان هناك حلاً يحتمل ان يلائم الموقف ؟

« ان العلاقة بينكما قد تطورت وتعقدت حتى باتت في حاجة الى تصفية ، وأعتقد ان هذه التصفية لا تكون إلا بالفراق .

فقال كارنين بامتعاض : هل تعني الطلاق ؟

— نعم .. أعتقد ان الطلاق أفضل حل لما انتما فيه .

والواقع ان كارنين كان يتردد في طلاق امرأته خوفاً من الفضيحة التي تحط من قدره ، وتجعل اسمه مضغة في الأفواه .. كما تفضح إمرأته التي كان يحبها .

ثم إذا حدث الطلاق فماذا يكون من امر ولده ؟ مستحيل ان يتركه لأمه .. فقد تتزوج ويعيش الصغير في جو غريب عنه .

هل يحتفظ بالغلام .. ذلك يكون إنتقاماً وهو لا يريد ان ينتقم .

ودفن رأسه بين يديه وصاح :

— آواه يا إلهي .. هل استحققت كل هذا ؟

ودفن وجهه بين كفيه .. فقال اوبلونسكي :

— انك مضطرب الأعصاب .. وإني اقدر موقفك .. فإذا .

ولكن كارنين لم يكن يصغى إليه .

كان يناجي نفسه بقوله : « من صفعك على خدك الأيمن . فادر له خدك الأيسر .. وإذا اخذا إنسان رداءك .. فاعطه قميصك » .

ثم صاح بصوت ثاقب : نعم .. نعم .. سأضطلع بفضيحة الطلاق .. بل وسأنزل كذلك عن ولدي .

وسار الى النافذة ، ووقف هناك لا يبدي حراكاً ، ولا يحول وجهه يمنة أو يساراً .. كيلا يرى اوبلونسكي دموعه .

بيد أن شعوره بالمرارة .. كان ممتزجاً في هذه اللحظة بشعور آخر هو لذة التضحية ، وإنكار الذات .

قال اوبلونسكي بصوت يضطرب تأثراً وانفعالاً :

— يا اليكسيس كارنين .. إنك رجل كريم وسوف تقدر أنا هذا الكرم .

وأراد كارنين أن يقول شيئاً .. فخنقته العبرات .

قال اوبلونسكي : هذه نكبة محزنة كان لا بد من مواجهتها وقد نظرت

اليها كحقيقة واقعة ، وحاولت أن اساعدك واساعدها .

* * *

اهتزت يد فرونسكي عندما اطلق الرصاص على نفسه في ساعة يأسه واضطرابه ، فاصيب بجراح خطير ، ولكنه لم يمت .

ولما فتح عينيه وجد زوجة اخيه تضمد جراحه ، فقال لها :

– ان الغدارة انطلقت قضاءً وقدراً فلا تقولي غير ذلك .

ولما اندمل جرحه ، أحس بأنه قد غسل بدمه ما كان يشعر به من خزي وعار ، وأنه يستطيع ان ينظر الى الناس في وجوههم .. بل وينظر في وجه كارنين دون ان يشعر من كرمه ونبله بالمذلة والهوان .

شيء واحد لم يستطع انتزاعه من قلبه .. رغم كفاحه ونضاله وذلك هو اليأس ، لأنه فقد حب أنّا ..

وجد انه قد كفّر عن جريمته حيال الزوج .. وانه قد أصبح لزاماً عليه ألا يقف بعد الآن بينها وبين زوجها وتوبتها .. ولكنه لم يستطع ان يمحو من قلبه حبها .. ولا ان ينسى اللحظات الهنيئة التي قضاها معها ..

وحدث ان عُرض عليه منصب رفيع في (طشقند) . فقبله في غير تردد .. ولكن ما ان اقترب موعد الرحيل .. حتى احس بفداحة التضحية التي وطن عليها النفس في سبيل الواجب . فراح يعد عدة الرحيل ويقول لنفسه :

– ليتني أراها مرة اخيرة .. فلا يهمني إذا مت بعد ذلك .

وعبر للأميرة بتسي عن امنيته .. فسعت سعيها .. ونقلت اليه الجواب بالنفي . فقال :

– هذا حسن .. فلو رأيتها لذهبت شجاعتي .. وضعفت عزيمتي .

ولكن بتسي قابلته في اليوم التالي .. ونقلت اليه ما علمته من اوبلونسكي وهو ان كارنين وافق على الطلاق .. وانه – اي فرونسكي – يستطيع الآن ان يرى انّا متى اراد .

ولم ينتظر فرونسكي اكثر من ذلك .. وانطلق لساعته إلى بيت كارنين .. فإلى مخدع أنـّا .

ووجد عشيقته في انتظاره .. فألقى بنفسه تحت قدميها .. وقبل يديها .. ووجهها .. وعنقها .. وقالت أنـّا وهي تضغط يديه فوق صدرها :

– نعم .. انك ملكتني .. وقد اصبحت لك .

فهتف : أحقاً إننا سنعيش وحيدين آمنين .. كزوج وزوجة ؟

إنني لا أصدق حواسي .

فأجابت : لقد قال ستيفان ان (كارنين) يوافق على كل شيء ، ولكني لا استطيع قبول كرمه .. ولا أريد الطلاق .. ولا شيء يهمني الآن . ولا أعلم ماذا سيكون من أمر (سيرج) .

ولم يفهم فرونسكي كيف كان في استطاعتها أن تفكر في ولدها في تلك اللحظة السعيدة .. وقال :

– لا تزعجي نفسك بالكلام والتفكير .. نحن سعداء وهذا كل ما يهمنا .

ولكنها كانت تنظر إليه ولا تراه .

وقالت بصوت المحتضر : أواه .. يا إلهي .. لماذا لم أمت .

وسالت الدموع على وجنتيها في هدوء .

* * *

ورفض فرونسكي المنصب الذي عرض عليه في طشقند ، ولاحظ ان رؤساءه قد امتعضوا لرفضه .. فاستقال .

وبعد اسبوع هجرت أنـّا زوجها وولدها ، ورحلت مع عشيقها الى ايطاليا. بعد ان رفضت الطلاق رفضاً باتاً .

- ١٠ -

الاجتماع

نسيت (انـّا) متاعبها ومرضها وزوجها ، وما تولتها به الأيام من شقاء في الأشهر الثلاثـة التي قضتها مع فرونسكي في ايطاليا .. لا تتألم ولا تتعذب ، ولا تشعر بمهانة مركزها الجديد ، كما وجدت في طفلتها عزاء عن ولدها .

أما فرونسكي فإنه لم يكن سعيداً كل السعادة ، كان يشعر بأن هذه السعادة التي ابتاعها بالآلام والمهانة . ووضع مستقبله وسمعته ثمناً لها ، ليست إلا ذرة من حبل الهناء الذي كان يتوقعه ، وهداه هـذا الشعور الى الخطأ الذي يتورط فيه اكثر الناس حين يتوهمون ان السعادة تكون في تحقيق أمانيهم العاطفية .

وأخـــيراً سئم الحياة في ايطاليا ، وقرر العودة الى بطرسبرغ ، وشاركته (انـّا) هذه الملالة ، وصحت عزيمتها على العودة الى أرض الوطن .

وأما كارنين فقد عظم شقاؤه بعد ان هجرته زوجته ، وتركته مـع ولده ، وضاق صدره حين استشعر ان الناس يحتقرونه ، حتى الخدم كانوا ينظرون إليه نظرات مريبة ، ولم يكن حوله من يرفه عنه ، ويشاطره آلامه وهمومه كإنسان ، لا كموظف كبير .

كان في أيام سعادته يجد في حبه لامرأته غناءً عن صداقة الناس فلما هجرته إمرأته .. أجال الطرف حوله فلم يجد صديقاً يفزع إليه .. ويسكب في أذنـه حديث يأسه وشقوته .

كان يعرف الكثيرين ممن يستطيع أن يـدعوهم لتناول الطعام أو قضاء

السهرة .. ولكن ليس بينهم واحد يستطيع أن يسر إليه بمكنون صدره .

استعرض كارنين أسماء أصدقائه وصديقاته .. ونسى الكونتس (ليديا ايفانوفنا) .. ولكن الكونتس لم تنسه .. فإنها اقتحمت غرفته في ذلك اليوم، فوجدته جالساً على مكتبه تلك الجلسة المحزنة .. ورأسه بين يديه .

قالت له بسرعة وبصوت ينم عن الانفعال :

– لقد علمت ما حدث يا اليكسيس كارنين .

ورمقته بنظرة رثاء وعطف .. فنهض من مكانه .. وقدم إليها مقعداً .. وقال وشفته ترتجف :

– معذرة يا سيدتي الكونتس.. انني لم أشأ أن استقبل أحداً لأنني مريض. فهمست : مسكين أنت يا صديقي .

واهتز ركن فمها .. ورأى كارنين على وجهها علامات التأثر وفهم أنها آسفة له حقاً .. وانها توشك أن تبكي رحمة به .

قالت بصوت تخنقه العبرات: يجب ألا تسلم نفسك للحزن يا صديقي العزيز. ان مصيبتك تجل عن العزاء . ولكنك سوف تجد السلوى .

فحدثها كارنين بما يعانيه من العذاب والألم النفسيّ ، وكيف انه مضطر فوق هذا كله للاهتمام بشؤون المنزل ، وتحديد اعمال الخدم ، وقال :

– هذه المشاكل الضئيلة قد احرقتني .. وليس في استطاعتي احتمال المزيد منها .

« وبالأمس فقط نهضت عن مائدة الطعام .. لأني لم اطق نظرات ولدي .. انه لم يسألني معنى ما يرى ، ولكن السؤال كان يتحير في عينيه ، فلم اطق نظراته الخائفة الذليلة المتسائلة .

فقالت الكونتس : رفه عن نفسك يا صديقي .. اني افهم كل هذا .. وقد جئت لكي اقف بجانبك في محنتك .. فهل لك ان تترك لي امر الاهتمام بهذه الشؤون المنزلية التي تحطم اعصابك ؟

« لا بدّ للمنزل من إمرأة تديره وتهيمن على شؤونه .. فهل تنقل إلي هذه المهمة ..؟

فشدّ على يدها شاكراً راضياً .

وكانت الكونتس امرأة ورعة اقترنت في شبابها برجل من النبلاء الأغنياء ، ما لبث ان هجرها بعد شهرين، ولم تدر المسكينة لماذا هجرها، وكيف هجرها، ولما يئست من عودته ، انتزعت حبه من قلبها وأوقفت نشاطها على اعمال الخير .

ولما علمت بمحنة صديقها كارنين عرضت عليه عنايتها وعطفها، فقبلها شاكراً ففرحت في سرها للنكبة التي اصابته ومكنتها من الاتصال به .

ولما علمت بعودة فرونسكي وأنّا من ايطاليا قررت أن تبذل قصارى جهدها للحيلولة بين كارنين والمرأة التي قوّضت سعادته ، فلما علمت أنهما يعتزمان مغادرة بطرسبورغ الى مزرعة فرونسكي ، تنهدت الصعداء واطمأنت الى نجاة كارنين من مقابلة كانت جديرة بأن تدمي جراحه .

ولكنها فوجئت ذات يوم برسالة من (أنّا) ترجوها فيه —دون كارنين— أن تسمح لها بمقابلة ولدها .

فذهبت بالرسالة الى كارنين ، فلم يمانع ، ولكن الكونتس ما زالت به حتى حولته عن رأيه ، وأسرعت فكتبت الى أنّا الكتاب التالي :

« سيدتي :

« ان تذكير ولدك بك قد يحمله على إلقاء اسئلة يتعذر الإجابة عليها .. دون تدنيس ناحية مقدسة من نواحي شعوره ، ولذا ارجو ان تقابلي رفض زوجك بروح التسامح وليرحمك الله .

الكونتس ليديا

وقرأ كارنين الرسالة ، ولم يوافق عليها ، ولم يعترض ، وسمح لصديقته بإرسالها ، ولكنه ظل ذلك اليوم مضطرباً قلقاً ..

* * *

وصل فرونسكي وانـّا الى بطرسبرغ . ونزلا في أفخم فنادق المدينة وأقام فرونسكي بمفرده في غرفة مستقلة في الطابق الأول .. واحتجز لأنـّا والطفلة والمربية جناحاً خاصاً في الطابق الثاني ..

وكان اول شيء فعله فرونسكي عقب عودته .. انه ذهب لزيارة أخيـه .. فوجد والدته هناك .. وكانت قد جاءت من موسكو لبعض شؤونها ..

ورحبت به والدته وفاريا . وسألتاه عن رحلته في اوروبا ، وعن اصدقائها الذين قضوا الصيف في الخـارج .. ولكنهما لم تذكر كلمة واحـدة عن أنـّا وصلته بها .

أما اخوه .. فإنه سأله عن هذه الصلة .. وأجابه فرونسكي في صرامة انه يعتبرها صلة دائمة كالزواج .. وانه سيتدبر معها امر الزواج . لـكي يتسنى له ان يقترن بها .. ولكنه ينظر اليها الآن كزوجته .. وطلب اليـه ان يقول ذلك لوالدته .. ولزوجته فاريا .

ولكن فرونسكي لم يفطن الى أن المجتمع لا يستطيع ان يستقبل (انـّا) في مجتمعاته ، ما دامت لم تطلق من زوجها ، ولما حاول فرونسكي اقناع (فاريا) زوجة شقيقه بمناصرته ، واستقبال (انـّا) في منزلها ، وزيارتها قالت له :

ـ انت تريدني ان أزور (انـّا) .. واستقبلهـا في بيتي .. واساعدها على العودة الى المجتمع .. ولكني لا استطيع شيئاً من ذلك .. لأن لي بنات يجب ان احرص على مستقبلهن .. ولي زوجاً .. يجب أن احترم صلته بالناس .

« ولنفرض انني ذهبت لزيارة انـّا .. فانها تفهم حق الفهم انني لا استطيع ان استقبلها في بيتي .. وانني اذا استقبلتها تعين لي ألا اجمع بينهـا وبين الذين ينظرون الى امرها بعين اخرى .. وفي ذلك اهانة لها وتخديش لشعورها .

« ثم انني لا استطيع بحال ان ارفعها الى ..

فقاطعها فرونسكي بمزيد من الغضب والاسى :

ـ ولكني لا ارى أنها انحدرت الى ادنى من كثيرات .. ممن تستقبلينهن في بيتك .

ونهض واقفاً .. فصاحت فاريا :

– بالله لا تحنق عليّ يا اليكسيس .. فليس الخطأ خطأي .

فأجاب بحزن :

– انني لست حانقاً عليك يا فاريا .. ولكن ألمي مزدوج ، لان ذلك يفصم العلاقة بيننا .. فان لم يفصمها فلا اقل من ان يضعفها .

وتركها وانصرف .

وادرك فرونسكي أن من العبث أن يقوم بأية محاولة في ناحية اخرى .. وانه اصبح لزاماً عليهما ان يعيشا غريبين في بطرسبرغ الأيام الباقيـــة .. وان يجتنبا اصدقاءهما ابقاء لكرامتهما وحرصاً على شعورهما .

وأصبح مركز فرونسكي في بطرسبرغ لا يطاق عند مـــا خيل اليه انه يرى كارنين في كل مكان .. ويسمع اسمه متحيراً على كل لسان .

كان مثله في ذلك مثل ذي الاصبع المريضة الذي يخيل اليه دائماً أنه يضرب أصبعه عمداً في كل شيء يصادفه .

ومما ضاعف شقاءه .. انه رأى من غرابة أطوار أنّا في تلك الفترة العصيبة ما اشعره بأنها تكتم عنه أمراً يزعجها .

كانت تبدي له الحب تارة وتزور عنه تارة اخرى .. وتقضي الوقت في اكثر الاحايين ساهية .. مفكرة .. صامتة .. ولا يبدو عليها أنها تشعر بمركزه الذي لا يطاق. وهو الذي الف منها دقة الحساسية. وسرعة الملاحظة . وبعد النظر..

لقد كان همّ (انّا) لما عادت الى (بطرسبورغ) أن تجتمع الى ولدهـــا (سيرج) .. ولما وصلت الى العاصمة ، وعلمت بالدور الذي تلعبـــه الكونتس ليديا في منزل كارنين كتبت لها الرسالة التي كلفتها الكثير من كبريائها ، فلمـــا جاءها ردها .. ثار حنقها وصاحت :

– يا للقساوة .. انهم يريدون تحطيم قلبي .. وتعذيب الغلام .. ولكن لن ارضخ لارادتهم .

وكان اليوم التالي ، هو يوم ميـــلاد (سيرج) فقررت أن تذهب الى بيت

زوجها وتقابل ولدها مهما كلف الأمر ..

وقصدت الى حانوت لبيع لعب الأطفال ، فابتاعت كمية منها وقررت أن تضع على وجهها نقاباً وتذهب الى بيت كارنين في ساعة مبكرة ، وتزعم للخدم أنها قادمة من لدن أحد أقارب الاسرة لكي تهنىء الغلام بعيد ميلاده وتقدم اليه بعض الهدايا ..

وأنفذت خطتها ، وسألت كبير الخدم عن ولدها فأخبرها أنه لا يزال في فراشه ..

ولكنه لما رفع عنها معطفها عرفها ، وقال :

– تفضلي يا سيدتي ..

وأسرعت الى مخدع ولدها فوجدته جالساً في فراشه يتثاءب فأسرعت اليه تقبله ، ونظر اليها الغلام قليلاً كأنه لا يصدق عينيه ، ثم عرفها وابتسم والقى بنفسه بين ساعديها .. وهو يقول :

– هذا يوم ميلادي .. وكنت أعلم أنك ستأتين .

والتهمته أنّا بعينيها .. ومست رأسه ووجهه .. وساقيه .. وساعديه .. وكل مكان في جسده . ولاحظت كم تغير في غيبتها ، وكم هزل .. وسألها :

– لماذا تبكين يا امي ؟

فأجابت وهي تبتلع دموعها : أنا لا أبكي .. أنا أبكي سروراً .. إنني لم أركَ منذ وقت طويل .. لم أركَ منذ أجيال .. كلا .. أنا لا أبكي .

ثم سيطرت على نفسها وقالت :

– أظن أنه قد آن لك أن ترتدي ثيابك .

وجلست على مقعد بجانب الفراش .. دون أن تفلت يده من يدها .. وقالت :

– كيف ترتدي ثيابك دون مساعدتي ؟ كيف ؟

قال :

– انني الآن لا اغتسل بالماء البارد .. فقد قال لي أبي انه لا يجب أن اغتسل

بالماء البارد . ولكنك قد جلست فوق ثيابي يا اماه .

وقهقه ضاحكاً . . فنظرت اليه وابتسمت . فهتف بصوت يذهب بين الفرح والبكاء : أواه يا امي الصغيرة .

والقى بنفسه بين ساعديها مرة اخرى ، وقال وهو يرفع القبعة عن رأسها :

— انك لست بحاجة الى هذه .

ولما رآها عارية الرأس .. كما اعتاد دائماً أن يراها .. راح يقبلها كأنه لم يعرفها إلا في تلك اللحظة .

وبعد قليل جاء كبير الخدم ينبئها ان كارنين قد أفاق من نومه ، فأسرعت تودع ابنها ، وتقبله وتقول له :

سوف لا تنساني .. أليس كذلك يا سيرج ؟

وأدرك الفتى أن امه لا تريد أن تلقى أباه ، ورأى أنها تعاني عذاباً أليماً .. وأسف لها .. وألصق نفسه بصدرها .. وغمغم :

— لا لا تذهبي انه لم يأت بعد .

فنظرت اليه .. لترى ان كان يفهم ما يقول .. وأدركت من نظراته الخائفة المتسائلة انه يفهم .. وانه يتكلم عن ابيه .. وانه يريد أن يسألها كيف يجب أن يكون شعوره نحوه ؟.

قالت له : احببه يا سيرج .. فانه أنبل مني وأكرم .. وأنا وحدي الملومة.

« سوف تكبر .. وتفهم .. وتحكم » .

فصاح في يأس والدموع تبلل خديه :

— لا يوجد من هو أكرم منك يا اماه .

— يا ولدي الصغير العزيز .

وبكت بكاء الأطفال .

ودخل الخادم العجوز مهرولاً ، وهمس :

— انه قادم .

فاختطفت أنا قبعتها .

وغاص الغلام في فراشه، ودفن وجهه بين كفيه، وراح يبكي بصوت مرتفع.
وقبلت أنا وجهه المبلل ، وأسدلت القناع على وجهها ، وانصرفت مسرعة ، فوجدت نفسها أمام زوجها ...
ورآها كارنين ، فوقف في مكانه ، وأحنى قامته باحترام .
وصعدته أنا بنظرة خاطفة أحاطت فيها بكل صغيرة في هيكله .
وشعرت نحوه — رغم ما قالته منذ لحظة عن كرمه ونبله — بالغضب والاحتقار ، والغيرة من أجل ولدها .
وخرجت مهرولة ، ونسيت في لهفتها ان تقدم لولدها اللعب والهدايا التي اختارتها له بمزيد من العناية ، والحب والأسى .

– ١١ –

الاهانة

عادت الى الفندق ، وقد تركت هذه المقابلة في نفسها أثراً لم تكن تتوقعه .
وأحست انه قد إنتهى كل شيء .. وأصبحت وحيدة كما كانت .
وجاءتها المربية الفرنسية بابنتها ، فحملتها وتأملتها ، وابتسمت في وجهها الصغير ، وقبّلتها ، وأعادت الطفلة الى المربية وصرفتها .
وأخرجت صور (سيرج) من حقيبتها ، وراحت تتأملها ووقع بصرها ضمناً على صورة (فرونسكي) ، فتذكرته لأول مرة في ذلك النهار ، وتذكرت انه علة شقائها ، وقالت في ضجر وعتب :
— ولكن أين هو ؟ ولماذا يتركني وحيدة ، فريسة الهم .
ونسيت انها لم تحدثه عن زيارتها ، وانه لا يعلم بهمومها ، فأرسلت تدعوه

اليها ، وانتظرته بفروغ صبر .

وعاد الخادم يقول لها انه في غرفته مع احد أصدقائه .. وانه سيصعد اليها في الحال اذا سمحت له بمرافقة صديقه البرنس ياشفين .

فقالت لنفسها :

— اذن فهو لا يريد أن يأتي وحده ، لكي احدثه بكل شيء .

وفجأة خطر لها خاطر غريب ، ماذا لو فتر حبه لها .

واستعرضت في ذهنها حوادث الأيام الأخيرة ، ووجدت في كل منها ما يؤيد هذا الخاطر ، فقالت تحدث نفسها :

— ولكن عليه أن يصارحني بأنه لا يحبني ، لكي أعرف ما أصنع .

أصلحت هندامها لكي تبدو جميلة ، وذهبت الى غرفـــة الاستقبال حيث وجدت فرونسكي وياشفين بانتظارها ، فرحبت بالبرنس ودعته لتناول طعام العشاء الليلة ، فقـال البرنس : لا أظن اني استطيع قبول الدعوة ، فان في نيتي شهود (اميليا باتي) في مسرح الاوبرا .

فهتفت أنا : لقد قيل لي انها من أبرع الراقصات .

فدعاها البرنس لحضور الحفلة فقبلت،على أن يتناول طعام العشاء معها فقبل .

ونظر فرونسكي اليها بدهشة ، وسأل نفسه :

— هل في نيتها حقاً أن تذهب الى الاوبرا حيث لا بد ان تجد جميع أصدقائها وصديقاتها .

وبعد أن ودع فرونسكي صديقه عاد الى أنا يرجوها أن لا تذهب .

فقالت : لماذا ! ثم انني لن أذهب بمفردي ، فقـد أرسلت الى عمتي الأميرة بربارا وسوف تأتي معي .

— ولكن ألا تعلمين ؟ .

فصاحت بضجر : أنا لا اريد ان اعلم .. لا اريد ، أتعتقد انني اعض بنان الندم على ما فعلت .. كلا .. كلا .. ولو بدأت حياتي من جديد لأقدمت مرة اخرى على ما فعلت .

« المهم بالنسبة الينا أنا وأنت ، ان نحب بعضنا بعضاً ، وأنا لا اقيم وزناً لأي اعتبار غير هذا ، انني احبك ولا يهمني إلا أن تحبني ، وألا يتحول قلبك عني ، لماذا لا تنظر إليّ ؟

فنظر اليها ، ورآها بكل فتنتها وسط الاطار الحريري الأنيق الذي يحيط بجسدها .

قال بصوت خافت ، فيه حزن وفيه ضراعة :

– أنت تعلمين انني احبك ، وان قلبي لن يتحول عنك ، ولكن أرجوك ألا تذهبي ، أتوسل اليك .

ولكنها لم تسمع صوته ، ولم تفطن لرجائه ، وإنما فطنت فقط للنظرة الجادة الباردة التي ارتسمت في عينيه ، فأجابت في ضجر :

– أرجوك أن توضح لي لماذا لا ينبغي أن أذهب .

– لأن ذلك قد يجر عليك .

وحار فيما يجب أن يقوله .

وأجابت أنـّا :

– انني لا أفهمك على الاطلاق ، ان البرنس ياشفين رجل محترم حسن السمعة ، والأميرة بربارا ليست أسوأ الناس ، ووجودي معها لا يجب ان يضايق أحداً ، آه .. ها هي الاميرة بربارا .

* * *

كانت هذه أول مرة غضب فيها فرونسكي على أنا ، لإصرارها على تجاهل موقفها ، وقد أراد ان يصارحها بما في نفسه ، ولكنه لم يستطع ، ولو صارحها لقال لها :

– ان ظهورك في الاوبرا بهذا الثوب الخليع ، وبصحبة هذه الأميرة التي يعلم الجميع انها تأكل على كل مائدة ، ليس فقط بمثابة الاعتراف بمركزك كامرأة ساقطة لا تجد لنفسها رفيقة محترمة ، ولكنه كذلك تحد للمجتمع .. معناه الخروج منه الى الأبد .

وقد حدث في الاوبرا ما توقع فرونسكي ان يحدث ، فقد أهانتها الكونتس كارتازوف التي كانت تجلس مع زوجها في مقصورة مجاورة (أنا) .. لأن زوج الكونتس حيّاها وحيته ، وغادرت المقصورة غاضبة ناقمة على الأثر ، وتبعها زوجها ، بعد أن حاول تهدئة عواطفها فلم يوفق .

وقد علم فرونسكي بهذا الحادث لما لحق بأنـّا الى الاوبرا ، بعد ان تركته وذهبت مع عمتها والبرنس ياشفين .

فزاد حنقه على (انـّا) لانها أوقعت نفسها في هذا المركز الحرج .. وأشفق عليها لما تعاني من ألم ومذلة .

وانتظر الى نهاية الفصل الثاني ، ثم عاد الى الفندق ، فوجد (أنا) قد سبقته .. ورآها جالسة في غرفتها تنظر الى الجدار ولا تبدي حراكاً .

كانت لا تزال مرتدية ثوبها ومعطفها وقبعتها ، فأحس بقلبه يتمزق رحمة بها وإشفاقاً ..

همس : أنـّا ..

فصاحت : كل هذا بسببك.. بسببك أنت . وبكت يأساً وخزياً، وحنقاً .

— ولكنني توسلت اليك ألا تذهبي .. لقد كنت أعلم أن ذهابك لن يرضيك ..

فصاحت : لن يرضيني !! انني كنت في جحيم .. ولن انسى هذا الموقف ما حييت .. لقد قالت لي أن الجلوس بالقرب مني عار وإهانة .

— إنها امرأة حمقاء . لا ينبغي أن يقام لها وزن . ولكن الخطأ خطأك . لماذا تستهدفين ؟

فقاطعته : إنني أمقت سكينتك . أنت الذي دفعت بي الى هذا المصير . لو أنك كنت تحبني حقاً إذن ..

فهتف عاتباً : أنـّا ..

— نعم . لو انك كنت تحبني وتشاطرني آلامي ، وشقوتي اذن ..

ونظرت اليه في جزع ، وأشفقت مصيرها من غضبه ونفوره . فصمتت ولم تتم عبارتها .

وفي اليوم التالي ، غادرا بطرسبورغ ورحلا الى مزارع فرونسكي .

* * *

لما علمت (داريا) .. وكانت تزور كاترين وزوجها ليفين في مزرعته، ان أنا والكونت فرونسكي يقيمان في مزرعة الكونت القريبة ، قررت زيارتها ، رغم اعتراض ليفين ، واستنكار كاترين .

والتقت بها في الغابة التي اعتاد العاشقان الصيد فيها ، ودهشت (أنّا) حين أبصرت بها ، ولم تصدق عينيها ، وألقت بنفسها عن ظهر جوادها ، وأرغمتها على الترجل وضمتها الى صدرها ، ودموع الفرح تملأ عينيها .

وبعد أن سكن جأشها ، قدمتها الى فرونسكي ، وقدمت فرونسكي اليها . وعاد ثلاثتهم على الفور ليتناولوا طعام الغداء .

وكان فرونسكي يسير بجواده في المقدمة ، وأنّا وداريا تتبعانه على مسافة بضعة أمتار .

وفي أثناء الطريق . لاحظت أنا ، أن داريا تنظر اليها خلسة ، وتطيل النظر . فقالت لها في صرامة :

ـ لا شك انك تنظرين إليّ ، وتتساءلين عما اذا كنت سعيدة ، فماذا رأيت ؟ يخجلني أن أقول لك انني أسعد امرأة في الوجود ، وانني كمن يستيقظ من حلم مخيف ، فيرى الشمس تشرق على وجهه ، ولا يجد أثراً للأشباح المزعجة التي تراءت له في حلمه .

فابتسمت داريا وأجابت :

ـ يسرني أن أعلم ذلك . ولكن لماذا لم تكتبي اليّ ؟

ـ لماذا ؟ لأنني لا اجسر .

وتنهدت وأردفت : هل نسيت مركزي ؟

فهتفت داريا : لم تجسري على الكتابة اليّ انا ! أنت تعلمين أنني احبك مهما يكن مركزك . إن الانسان اذا أحب شخصاً ، فإنه يحبه لنفسه وكما هو .. لا كما يريده أن يكون .

فحولت أنا وجهها ، وفكرت ، وفهمت معنى هذا الكلام .

وقالت : اذا كنت قد ارتكبت خطيئة فسيغفر لك الله خطاياك من أجل هذه الزيارة ، ومن أجل هذا الكلام .

واغرورقت عيناها بالدموع ، ولاحظت (داريا) ذلك .

فقالت لتغير مجرى الحديث : ما هذه الأبنية الصغيرة ؟

فأجابت أنّا : هـذه هي بيوت المزارعين . وقد شيدناها منذ أقمنا هنا . وهذه حظائر الماشية . وهذا البناء المرتفع ، هو مستشفى الولادة الذي شيدته خصيصاً لنساء الفلاحين .

— يا إلهي .. ما أجمل كل هذا .. إنك جعلت في المزرعة فردوساً للجميع .

فابتسمت أنا بكآبة ولم تجب .

* * *

لما استطاع فرونسكي أن ينفرد بداريا في اليوم الثالث لزيارتها ، حدثها بما تعانيه (أنا) من المتاعب والأهوال ، من جراء انهيار مركزها ، ونبذ الهيئة الاجتماعية لها وأردف يقول :

— مستحيل أن تتصوري عذاباً نفسياً أقسى وأشد وطأة مما عانته خلال الأيام التي قضيناها في بطرسبرغ .

— وماذا يضيركما ، ما دمتما لا تشعران بحاجة الى المجتمع ؟

ثم أردفت وهي تبتسم : لقد قرأت في عيني أنّا أنها سعيدة ، وقد كاشفتني بذلك .

فقال على عجل : نعم . نعم . إنني أعلم .! انها سعيدة هانئة ، في الوقت الحاضر على الأقل . ولكنني لست بالهانىء السعيد .. إنني أخاف المستقبل .

وأحسب ألف حساب .

– لقد جمعت بيننا رابطة لا تنفصم مدى الحيـاة ، ولنا طفلة ، وقد نرزق أطفالاً آخرين . ومع ذلك فإن مركزنا القـانوني والاجتماعي حافل بالمصاعب والمشاكل .

« إنها في الوقت الحاضر في غمرة من أحزانها وعذابها ، فطبيعي أن لا تدرك هذه المشاكل . أما أنا فادركها ، وألمسها .

« إن الطفلة في نظر القانون ليست طفلتي .. وإنما طفلة كارنين . وهذا زيف أمقته وأدريه » .

فلم تجب داريا ، ونظرت اليه في حيرة وقلق .

استطرد يقول : وفي مستقبل الأيـام قد نرزق ابناً .! ابني .! ولكنه سيكون بحكم القانون ابن كارنين ولن يحمل اسمي . أو يرث أملاكي .!

« ومهما كنا سعداء في حياتنا العائلية . ومهما رزقنـا من أولاد . فسنظل غرباء لا تجمع بيننا جميعاً رابطة شرعية .

« فتصوري ما في مثل هذه الحياة من حرج وألم !

« وقد حاولت أن أتحدث الى أنا في هذا الصدد ، ولكني أشفقت أن يؤلمها حديثي ، أو أن تسيء تأويله . والآن تدبر الموقف من الناحية الاخرى .

« إنني سعيد . سعيد بحبها . ولكني في حاجة الى عمل أؤديه .

« وقد وجدت عملاً في مزرعتي . إني فخور به ، وأراه أشرف ممـا يتولاه رفاقي في البلاط أو في الجيش .

« ولكن ما الفائدة من أن أكد وأكدح ، وأصل الليل بالنهـار في العمل ، وليس لي وريث يحمل اسمي ، ويواصل عملي ؟

وتنهد وجفف العرق المتصبب على جبينه واستطرد :

– ذلك حالي ، وهو حال رجل يعلم سلفاً أن كل ولد يرزق به من المرأة التي يحبها لن ينسب اليه ، وإنما ينسب الى رجل آخر . رجل سوف يبغض هـذا الولد ، ويزدريه ، ولا يضمر له من الرحمة والحنان قليلاً أو كثيراً .

« إنها محنة لا تطاق ، وانني في الحق أتعس رجل في الوجود .

وكفّ عن الكلام ، وظهرت على وجهه النبيل علامات التأثر والانفعال ، فقالت داريا :

— انني أفهمك، انني أفهمك تماماً. ولكن ماذا في استطاعة أنـّا أن تفعل ؟

— آه . ذلك هو غرضي من الحديث . إن في استطاعتها أن تفعـل أشياء كثيرة ، في استطاعتها أن تطلب الطلاق وتتبنى طفلتها .

« لقد أبدى زوجها موافقة على الطلاق ، واعتقـد أنه لن يتراجع الآن . ولكنه يطالب فقط بأن تبدي أنا رغبتها في الطلاق في رسالة تبعث بها اليه .

وصمت لحظة ثم استطرد :

— وهذا طبعاً لون من ألوان التعذيب النفساني يلجأ اليه هذا الرجل ، فهو يعلم أن مجرد ذكر اسمه يؤلمها . ولهذا يريد الإمعان في إذلالها وإيلامها بإرغامها على الكتابة اليه .

« ومن أجـل هذا ألجأ اليـك يا سيدتي الأميرة مستنجداً متوسلاً ، ملتمساً منك المعونة على إقناع أنا بوجوب الكتابة الى زوجها .

فأجابت داريا وقد شرد لبها : طبعاً . طبعاً . بلا شك .

— وأرجو أن تتوصلي الى ذلك بنفوذك كله ، فأنت وحـدك التي تستطيعين إقناعها . أما أنا فلا أرغب ، ولا يسعني التحدث اليها في هذا الشأن .

— نعم . نعم . سأتحدث اليها ، واقنعها . يا إلهي . كيف لم تفكر في ذلك من تلقاء نفسها ؟

فلما كان المساء اجتمعت (داريا) بأنـّا ، ونصحتها بأن تطلب الطلاق من زوجها ، لتستعيد حريتها ، وتخلق حول حياتها الحاضرة لوناً من الشرعية .

فقالت أنا في مرارة وحزن :

— ولكن .. أية زوجة . بل أية امة ؟ تخلص له مثل إخلاصي ، وتتفانى في حبه كما أتفانى ؟

— ولكنه لا ينشد إلا أن يمحو هذا العذاب الذي تكابدين .

– هذا مستحيل !
– ويريد أن لا ينشأ أولادك مجهولين بغير اسم أو لقب .
ففكرت أنا ، وشرد بصرها ، وهمست :
وكيف يمكن ذلك ؟
– بالطلاق .. وقد قيل لي أن زوجك وافق على الطلاق .
– داريا .. إنني لا أود أن أتحدث في هذا .
ورأت داريا على وجه أنّا مسحة من الألم فقالت :
– إذن فلندع هذا الموضوع . ولكن يخيل إليّ أنك تنظرين الى الحياة نظرة ملؤها اليأس .
– هذا غير صحيح ! إنني على النقيض جذلة مرحة .
ثم استطردت فجأة وقد شاعت في صوتها نبرة غريبة .
« نعم .. انني لا احب سوى هذين المخلوقين ، ولكن ليس في وسعي أن أجمع بينهما ، وان كنت لا أتمنى من دنياي غير هذا .
« وسيان عندي كل شيء ما دمت لا أستطيع تحقيق هذه الأمنية .
« ولا تنحي علي باللائمة يا داريا ، فانك في طهارتك ونقاوتك ، وراحة بالك ، لا تستطمين أن تدركي مبلغ شقائي وألمي .
« ولا تحتقريني كذلك ، فانني لا أستحق احتقاراً ، انني امرأة منكودة ، وليس في هذه الدنيا أشقى ولا أتعس مني » .
وصمتت وعادت تكرر :
– هل لم أفكر في هذا ؟ انني لا أفكر إلا فيه ليل نهار . ولكن ماذا أستطيع أن أفعل ؟ أن أطلب الطلاق ؟ ان اليكسيس يعلم ان زوجي قد لا يوافق ، ان ارادته اليوم رهينة بإرادة الكونتس ليديا ايفانوفا .
– ومع ذلك .. لماذا لا تحاولين ؟
– لنفرض جدلاً انني حاولت ، وانني وطئت كبريائي في الأوحال ، وكتبت اليه راجية متوسلة ، فماذا يكون ؟

أحد أمرين ، اما أن أتلقى منه رسالة تفيض بعبارات الزجر والاهانة ، واما أن أتلقى موافقته .

« ولنفترض انه وافق على الطلاق » .

وصمتت وهي تلهث ، ثم أردفت :

— لنفترض انه وافق على الطلاق ، فهل الطلاق هو كل شيء ؟ وولدي؟ انهم لن يتركوه لي ، ولسوف يحتفظون به في بيت الرجل الذي هجرته ، وينشئونه على احتقاري وازدرائي .

« ويجب أن تفهمي انني لا احب في الوجود إلا شخصين ، شخصين اثنين احبهما أكثر من نفسي ، هما سيرج والبكسيس ، فكيف أطيق فراق ولدي وقطيعته ؟ وهل يعزيني عن فقده ان يكون اليكسيس الى جانبي ؟

« نعم .. اني لا احب سوى هذين المخلوقين ، ولكن ليس في وسعي أن أجمع بينهما .

« وسيان عندي كل شيء ما دمت لا أستطيع تحقيق هذه الامنية .

« انني امرأة منكودة ، وليس في الدنيا أشقى ولا أتعس مني » .

وسارت نحو الباب وهي تئن وتبكي .

- ١٢ -

النهاية

أعلن فرونسكي بعد سفر (داريا) عزمه على السفر للاشتراك في الانتخابات العامة لمجلس المقاطعة ، وأعلن عن عزمه على السفر بلهجة قاطعة ، أحست معها

أنــا انه لا جدوى من اقناعه بالعدول عن ذلك.

شغلت نفسها بعد سفره في شؤون البيت والحديقة والمستشفى ، فاذا أقبـل الليل عمدت الى المورفين لتخدير أعصابها ، والتخلص من سهادها وأرقها .

وفكرت في الطريقة التي تمكنها من الاحتفاظ بعشيقها ومنعه من هجرها ، ولم تجد غير طلب الطلاق سبيلا ، والى انه أفضل وسيلة .

وصحت عزيمتها على ذلك ، وقررت ان تفاتح فرونسكي بالأمر في أول فرصة ..

وانقضت خمسة أيام .. ولم يعد فرونسكي .

وفي اليوم السادس، خطر لها ان تلحق به ، ثم عادت فقنعت بالكتابة اليه ، وزعمت في رسالتها ان الطفلة مريضة مشرفة على الموت ، وانها ترجوه ان يعود في أقرب وقت .

ولكنها ما كادت تبعث بالرسالة حتى ندمت ، وأشفقت على نفسها من غضبه متى علم بأنها كذبت ، لكي تحمله على العودة .

ثم قالت لنفسها : بحسبي ان يعود .

وفي مساء اليوم السابع ، عاد فرونسكي ، فخفت لاستقباله ، وهي تشعر بمزيج من الغبضة والحيرة ، ولا تعلم كيف تبرر كذبتها .

سألها حين وقع بصره عليها : والطفلة ؟

فأجابت : انها بخير .

— وأنت ؟..

وشد على يدها ، فأجابت : كعهدك بي .

وتناولا الطعام معــا ، وسرد فرونسكي بعض القصص عن الانتخابات ، فاطمأنت أنــا وهدأ روعها.

فسألته : حدثني بصراحة ، ماذ خطر لك عندما قرأت رسالتي ؟

فأجاب على الفور : أيقنت ان الطفلة بخير .

وابتسم ، فأدركت انه صفح عنها ، وقالت :

— وهل غضبت ؟
— كلا.. إنما أغضبني انك لا تريدين الاعتراف بأن هناك واجبات تقتضي..
فقاطعته في ضجر : أية واجبات ؟ غشيان المراقص والملاهي ؟
— كلا يا صديقتي ، هناك واجبات لا يستطيع الانسان ان يغفلها ، من ذلك مثلاً ان شؤون أملاكنا تحتم علي السفر الى موسكو غـداً ، فهل أقبع في عقر داري ، وأضرب بمصالحنا عرض الافق ؟ كلا يا أنـّا . لماذا تعذبين نفسك هكذا بالأوهام والوساوس ، انت تعلمين انني لا أستطيع ان أحيا بدونك .
ولكن أنـّا لم تسمع عبارته الأخيرة ، ولم تفهم إلا انه ينوي الرحيل في اليوم التالي ، فقالت بحدة :
— كلا .. كلا .. اذا كان لا بد لك ان تعود اليوم لترحل غداً ، أو اذا كنت قد سئمت هذه الحياة ..
فقاطعها : لا تكوني قاسية يا أنـّا ، انت تعلمين انني على استعداد للتضحية بكل شيء في سبيلك .
— اذا ذهبت الى موسكو غداً ، ذهبت معك ، انني لا أستطيع الاقامـة هنا وحدي ، إما ان نعيش معاً ، وإما ان نفترق .
— ليس أحب إلي من أن أقضي معك ما بقي لي من أيام في هذه الحياة ، ولكن ذلك يقتضيك ان ..
ان أطلب الطلاق ! حسناً ، سأفعل ذلك وسأكتب اليه ، ولكن هذه الحياة لا تطاق ، وسأذهب معك الى موسكو غداً .
فقال وهو يبتسم : ولماذا تقولين ذلك بلهجـة التهديد ، قلت لك انه ليس احب إلي من ان أقضي معك كل لحظة من لحظات حياتي .
ولكن نظرته الصارمة ، كانت تناقض صوته الرقيق .
كانت في عينيه نظرة من يريد ان يقول : يا للشقاء !
ورأت أنا هذه النظرة ، وفهمت معناها ، ونهضت لساعتهـا فكتبت الى كارنين تضرع اليه ان يوافق على الطلاق .

وفي اليوم التالي ، رحلا معاً الى موسكو .

* * *

ليس هناك ما يعقد أتفه الأمور كسوء التفاهم بين الزوجين .

وقد أصبح سوء التفاهم بين أنا وفرونسكي جرحاً دامياً لا يندمل أبداً .

وعلى الرغم من انه لم تنشأ بينهما خصومة خطيرة ، إلا ان قلق أنا وتذمرها، وإلحاحها الدائم في طلب إيضاح عن جميع حركات فرونسكي وسكناته ، كل ذلك جعل حياتهما معاً عبئاً ثقيلاً لا يطيقانه .

وزاد الطين بلة في تلك الفترة العصيبة من حياتهما ، ظهور عامل جديـــد لم يحسب له فرونسكي حساباً ، وذلك هو غيرة أنا .

والواقع .. ان أنا كانت تجد في كل امرأة تتحدث الى عشيقها ، أو يتحدث عنها عشيقها ، منافساً يهدد سعادتها بالزوال .. وقد هيأ فرونسكي لهذه الغيرة غذاء وصب عليها بترولاً دون ان يشعر.. وذلك انه كان يتكلم عن والدته ذات يوم .. فاتهمها بفساد الذوق وقصر النظر .. وذكر عرضاً انهـــا تحاول إقناعه بالاقتران بابنة الكونتس سوروكين .

وهكذا .. عندما طالت اقامتها في موسكو .. راحت تتهمه في سرها بأنه يتسكع في موسكو عامداً ليظل على اتصال بوالدته ، والكونتس سوروكين .

وأثار كل هذا حفيظتها عليه ، وأدمى جروحها القديمة ، فرأت فيه عـــلة شقائها ، وخزيها وفضيحتها وسبب آلامها ، وفرقتها عن ولدها .

على أن ذلـــك لم يمنعها من النظر الى الامور بعين الحكمة والرزانة في بعض الأحيان ، وعندئذ كانت تقول لنفسها :

— ان غيرتي الخرقاء تنخر سعادتي ، وتسمم حياتنا ، ومتى صفا الجو بيننا، وجب ان اقترح عليه العودة الى المزرعة ، وهناك نعيش في هدوء وسلام .

« نعم .. ان غيرتي لا مبرر لها ، فهو لا ينفر مني ، من المستحيل أن ينفر مني ، ومن المستحيل أن ينسى ، انني ضحيت بولدي من أجله » .

وحزّ الألم في قلبها عندما تذكرت هذه التضحية ، فلم تتمالك من البكاء .

وكان فرونسكي قد دعي لتناول الطعام عند بعض أصدقائه ، فلما عـاد ، استقبلته وفي عينيها نظرة خضوع واستسلام وسألته :

— هل نعمت بسهرة طيبة ؟

— نعم . شكراً لك . ولكن ماذا أرى ؟ ما هذه الحقائب ؟

— لقد خطر لي اننا نكون في المزرعة أسعد منا هنا .

— الواقع .. انه ليس أحب إليّ من ذلك .

ولكن عينيه قالتا غير ذلك ، وسألته أنا بعد صمت قصير :

— حدثني .. كيف قضيت سهرتك ؟

— قلت لك انها كانت سهرة بديعة .. وقـــد ذهبنا بعد الطعام الى حوض السباحة .. لشهود الحفلة التي اقيمت هناك لبطلة السباحة في السويد .

فانقلبت سحنة أنا ، وسألت :

— كيف ؟ وهل سبحت أمامكم ، رغم برودة الجو ؟ .

— نعم . وكانت ترتدي ثوباً للسباحة أحمر اللون ، مقيتاً . متى نعود الى المزرعة ؟

فهزت رأسها بعنف .. كأنما لتتخلص من خاطر يزعجها .. وقالت :

— بأسرع ما يمكن .. بعد غد .

— بعد غد .. هذا مستحيل .. ان بعد غد هو الأحد .. وأنا على موعد مع والدتي للحصول منها على نقود .. وبعض الأوراق .

فحدجته بنظرة ارتياب اضطرب لها على الرغم منه .. فضاعف الاضطراب ريبتها .. وجرى ذهنها الى الكونتس سوروكين ، وابنتها .

فقالت : ولماذا لا تذهب اليها غداً ؟

— غداً .. مستحيل . لأنها يجب أن تعد لي النقود والأوراق التي أطلبها .

— اذن نبقى .

— لماذا ؟

- إما أن نرحل يوم الأحد أو لا نرحل بتاتاً .

فصاح في دهشة وفروغ صبر :

- ولكن هذا جنون .

- الجنون ألا تفكر إلا في لذائذك ، وأن تتجاهل آلام الغير .

فتقدم اليها في حنق وغضب ، وصاح :

- ان هذا لا يطاق .. ان لكل صبر نهاية .. لماذا تعملين هكذا على تسميم حياتي ؟.

فقالت وقد راعتها نظرة الحنق التي ارتسمت في عينيه :

- ماذا تريد ان تقول ؟

- افصحي انت . ماذا تريدين مني ؟

- اريد ان اقول انه اذا لم يكن في استطاعتنا أن نجتمع على حب فخير لنا أن نفترق .

وتركته وانصرفت الى غرفتها .. وتهالكت على أحد المقاعد .. وهي تقول لنفسها :

- انه يمقتني ولا ريب في ذلك .. انه يحب امرأة اخرى .. ولم يبق لي في قلبه موضع .. فلأذهب .. ولكن الى أين ؟

وفكرت .. ولم تدر الى أين تذهب .

الى عمتها ؟ أو الى داريا ؟ أو تغادر روسيا .. وماذا يقول الناس .. وماذا يقول كارنين ؟

واضطربت ظهراً لبطن .. وتذكرت فجأة عبارة نطقت بها يوم هجرت زوجها وولدها ورحلت معه .

تذكرت قولها : يا إلهي .. لماذا لم أمت !

نعم .. لماذا لم تمت ؟ لماذا لا تموت الآن ؟ ان الموت هو المخرج الوحيد .

وبموتها تستطيع ان تمحو عارها .. وعار اليكسيس كارنين .. وعار سيرج.

وسيحزن سيرج ، ولكنه سيحبها .

وانقضت الليلة كأسوأ ما تنقضي الليالي .

كانت تلك أول مرة يبيتان فيها على خلاف .

ولكنها قالت لنفسها في الصباح :

ـ علام كان الخلاف ؟ على يوم الرحيل ؟ وماذا يضيرني لو قضيت هنا يوماً آخر .. ثم ان هذا ليس أول خلاف بيننا فلنرحل اذن في اليوم الذي يلائمه .

وقصدت الى غرفته لتقول ذلك .

وبينما كانت تجتاز الدهليز ، خيل اليها انها سمعت صوت مركبة تقف أمام الباب ، فأطلت من النافذة بدافع الفضول .. ورأت في المركبة صبية حسناء في مقتبل العمر ، تصدر أوامرها الى السائق .

وما لبث السائق ان دق الجرس ، وتحدث الى البواب .

وبعد دقيقة أو دقيقتين ، خرج فرونسكي مهرولاً وقبّل يد الصبية وتناول منها شيئاً ، وتحدث اليها وهو يبتسم ، ثم ابتعدت المركبة ، ولوّح فرونسكي بيده للفتاة مودعاً ودخل المنزل .

وشهدت أنا هــــذا المنظر ، وأحست بأن قلبها ينسحق ، وانبعثت ريبتها وشكوكها ، وأطلّ شيطان الغيرة برأسه ، فقالت لنفسها :

ـ ليس من الكرامة أن أبقى في هذا البيت لحظة اخرى .

وقصدت الى غرفته ، لتنهي اليه عزمها ، ولكنه ابتدرها بقوله :

ـ لقد أرسلت والدتي ابنة الكونتس سوروكين بالنقود الـتي طلبتها .. ولم يبق إلا أن أحصل على الأوراق الخاصة بنصيبي من ميراث أبي .

وأصغت اليه أنا .. وصعدته بعينيها ولم تنطق بكلمة .. فتابع قائلاً :

ـ أصبح من المحتمل الآن أن نرحل غداً .

فدارت على عقبيها وانصرفت وهي تقول :

ـ في استطاعتك أن ترحل .. أما أنا فلا .

ـ أنا .. ان هذا لا يطاق .

وخرجت ، فهم باللحاق بها ، ولكنه عاد فجمد في مكانه ، وغمغم :

— كلا ، لقد جربت معها كل وسيلة ، ولم يبق إلا التظاهر بقلة الإكتراث ، وارتدى ثيابه ، وتأهب لزيارة امه .

وانتظرت أنا ... ان يقول لها كلمة قبل رحيله ولكنه لم يفعل .

وسمعت وقع أقدامه وهو ينصرف ، فغاص قلبها بين جنبيها وأسرعت الى النافذة . . وأطلت منها . ورأته يثب الى المركبة .

وشيعته ببصرها . حتى توارت به المركبة ، ثم غمغمت :

— انتهى كل شيء .

ثم هالها أن ينتهي كل شيء . . واستولى عليها الذعر . . ودقت الجرس . . وسألت الخادم :

— هل تعلم الى أين ذهب الكونت ؟

— انه أمر السائق أن يذهب به الى المحطة .

— حسناً . . سأبعثك برسالة إليه . . وأرجو أن تلحق بـه قبل أن يصل الى المحطة .

وكتبت :

« انني مذنبة . . عد بحق السماء فالوحدة تخيفني من نفسي » .

وما ان انصرف الخادم . . حتى جعلت تسير في غرفتها كالحيوان الحبيس وتقول لنفسها :

— مستحيل أن ينتهي كل شيء هكذا . . ولا بدّ أن يعود .

وبعد نصف ساعة سمعت صوت مركبة ، فأسرعت الى النافذة وأطلت منها . . وقالت :

— نعم وافرحتاه . . انها مركبته . . ولكن المركبة كانت خالية إلا من السائق والخادم الذي أرسلته للحاق بفرونسكي .

وقال الخادم : انه لم يستطع اللحاق به ؛ وانه سافر بالقطار الى (نيبجني) . . حيث توجد والدته .

يا إلهي ما الذي يجب عليها عمله ؟.

ان القلق والشك والوحدة كلها كفيلة ان تقتلها قبل أن يعود .. هذا إذا كان سيعود .. ثم قررت أن ترسل له البرقية التالية :

« عد في الحال .. يجب أن اتحدث إليك » .

وقالت للخادم : ابعث إليه بهذه البرقية في (نيجني) .

ولما انصرف الخادم . قالت لنفسها :

– ولكن ماذا اصنع في انتظار الرد . يا إلهي . ما هذا الشقاء ؟

وتهالكت على مقعدها . وانفجرت باكية .

ووجدتها وصيفتها في هذه الحالة . وأدركت ما بها . فقالت كأنما لتجد لها مخرجاً من جحيمها :

– رفهي عنك يا سيدتي . اخرجي للنزهة . هـــذه امور تحدث دائماً في كل بيت .

فقالت انا : صدقت . سأخرج للنزهة وإذا وردت برقية فابعثي بهـا إليّ في بيت الأميرة داريا اوبلونسكايا .

وارتدت ثيابها . وخرجت في مركبة زوجها .

وكان الجو صحوا .. وقطرات النـدى تتألق على أوراق الشجر الذي يحف بجانبي الطريق .

ولكن الطبيعة بكل مباهجها . عجزت عن إدخال السلوى على نفسها .

راحت تجيل البصر حولها وتتحدث الى نفسها بما يشبه هذيان المحموم .

قالت : ما اجمل هؤلاء الفتيات الصغيرات .. انهن في طريقهن الى المدرسة .

ان أيديهن حمراء من فعل البرد كما كانت تحمر يداي .

وأنا في الطريق الى المدرسة في بطرسبرغ .

وعندما تذكرت بطرسبرغ .. تذكرت كذلك كارنين .. ورسالتها إليه .. ثم فرونسكي .. برقيتها إليه .. وهمست :

– من كان يظن انني اطأطىء الرأس هكذا .

ووقفت بهـا المركبة أمام بيت داريا .. فدخلت وهي تحاول أن تبتسم ..

ووقع بصرها على مرآة في الدهليز .. ورأت ابتسامتها أشبه بالبكاء . فقالت :
– كلا ، يجب أن أقول لداريا انني شقية ، وانني أتعذب ، وانني استحق هذا العذاب .

وسألت الخادم : هل يوجد زائرون ؟
– كلا ، لا يوجد سوى الأميرة كاترين .

ففكرت انا : كاترين ، لقد كان فرونسكي يحبها ، ومن يدري ، فلعلهُ ندم على انه قابلني ، ولعله ندم على انه لم يقترن بها .

وذهب بها الخادم الى غرفة الاستقبال ، ورحبت بها داريا ، وسألتها :
– هل طابت لكما الإقامة نهائياً في موسكو ؟

فارتسمت على شفتي انا ابتسامة حزينة وأجابت :
– اظن اننا سنبرحها قريباً .
– هل تلقيت رداً على رسالتك الى زوجك ؟
– كلا ، وقد بدأت أشعر باليأس .
– من الخطأ أن تيأسي، ان ستيفان ينوي الرحيل الى بطرسبرغ قريباً ، وفي نيته أن يقابل كارنين ليحثه على الموافقة .

فقلبت انا شفتيها ولم تجب ، ولكنها كانت تقول لنفسها :
– لماذا لم تأت كاترين ؟ لعلها ترى في وجودي خدشاً لكرامتها ، ولماذا اعتب عليها ، انا لا أجهل أن من حق كل إمرأة شريفة أن تبرم بي، وتتنكر لي، نعم ، انني ضحيت كل شيء في سبيله ، وهذا جزائي ، يا إلهي ، كم امقته !

ثم قالت بصوت مرتفع :
– هل ترى كاترين غضاضة في ان تقابلني ؟
– كلا ، كلا ، لماذا تتوهمين ذلك ؟ ها هي قد جاءت .

والواقع ، ان كاترين دخلت الغرفة في تلك اللحظة وأبصرت بأنا واحمر وجهها .

وقالت بصوت خافت : انني سعيدة برؤيتك .

وشدت على يدهـا ، وشعرت وهي تنظر الى وجهها الفاتن الحزين ، بأنها لا تستطيـع أن تكره هذه المرأة الجميلة الغامضة السيئة الطالع .

* * *

ودار الحديث بـين النساء الثلاث حول الحياة الريفية ، وكانت انا تصغي ، ولا تتكلم إلا نادراً .

وأخيراً نهضت لتنصرف ، وقالت وهي تشد على يد داريا وتبتسم لكاترين:

ــ الى اللقاء ، يسرني انني استطعت أن اودعكما .

وقبلتها ، وانصرفت ، وقالت كاترين لداريا :

ــ ما أجمل هذه المرأة ، ان مرور الأيام لا يزيدها لا فتنة ، ولكنني رأيت على وجهها اليوم مسحة ألم تدعو الى الرثاء والاشفاق .

فأجابت داريا : نعم ، انها ليست كعهدي بها ، لقد خيل الي حين قبلتني ، انها ستنفجر باكية .

وانصرفت أنا وهي أشد يأساً مما كانت .

ولم تفـــد من رؤية هاتين الزوجتين الهانئتين ، إلا شعوراً ملحاً بسقوطها وضياعها .

وعادت بمركبتها الى البيت فوجدت برقية في انتظارها .

فضتها ووجهها يتهلل بشراً وقرأت فيها :

« لن أتمكن من العودة قبل الساعة السابعة

اليكسيس »

وضغطت البرقية في يدها ، ثم بسطتها بين أصابعها واعادت تلاوتها وقالت لنفسها :

ــ لا يتمكن من العودة قبـــل الساعة السابعة ! وكيف أقضي الوقت حتى الساعة السابعة ، كيف أقضي كل هذه الأجيال ؟

وخطر لها أن تذهب الى (نيجني) لتقابله هناك وتعود معه .

وراقها هذا الخاطر ، فإنها ستجد في رحلتها القصيرة من ضروب التسلية ما يرفــه عنها ، ويساعدها على قتل الوقت ، ثم ان سفرها سيمكنها من مقابلته في الساعة الخامسة او السادسة حين يهم بركوب القطار .

* * *

ومرت الساعات ، وهي تروح وتغـــدو على افريز محطة (نيجي) وتجيل البصر في كل ناحية علها تراه .

ولكن لا ، انه لن يأت قبل الساعة السادسة ، لو كان في نيته حقاً أن يصل الى موسكو في الساعة السابعة كما ابرق إليها .

يا إلهي ، كيف تقضي الساعة الباقية ! من كان يظن انها ستشعر بكل هذا السأم ؟ ترى ماذا سيقول فرونسكي حين يراها في انتظاره ؟ هو ذا ناظر المحطة لا شك انه سيسألها للمرة العاشرة عن القطار الذي تروم السفر فيه .

وبدأت المحطة تمتلىء بالراغبين في السفر ، ودقت الساعة السادسة فخفق قلب انا ، ونظرت الى باب المحطة في لهفة ، كمن ينظر الى شيء يتوقف عليه حياتــه او موته .

وفجأة ، ابصرت بفرونسكي ، فهتفت : ها هو .

وهمت بالوثوب نحوه ، ثم جمدت في مكانها على الأثر .

لم يكن فرونسكي بمفرده ، كان متأبطاً ساعد تلك الصبية الحسناء التي زارته في الصباح ، وهما يضحكان بصوت رنان ، وعلى وجهيهما دلائل السعادة .

واحست انا بالأرض تميد تحت قدميها، وبالدنيا تظلم في عينيها وبقلبها يكف عن الحركة .

وتراجعت ببطء ، وسقطت على المقعد الحجري سقوط الطير الجريح .

ولكنها لم تحول عينيها عن فرونسكي وزميلته .

كانا يتحدثان تارة ، ويضحكان تارة اخرى ، ولا يحول أحدهما عينيه عن وجه الآخر .

وأقبـل القطار ، وشعرت انا بالأرض تهبط تحت قدميها فرفعت رأسها كمن يفيق من غيبوبة ، وغمغمت :

— نعم ، هذا ما كنت أتوقع .

وخيل إليها أن القطار وحش هائل يتحفز للوثوب ، وان مصباحه الأمامي الساطع عين مخيفة تريد ابتلاعها .

وجرى ذهنها الى محطة موسكو ، وقطار موسكو ، والحارس الذي دهمـه القطار يوم رأت فرونسكي لأول مرة .

وأرسلت البصر الى حيث كان فرونسكي ، ورأتـه يهم بركوب القطار ، فقالت وعيناها تلمعان كمصباح القطار :

— كفى ، كفى ، كفاني عذاباً ، وكفاك لهواً ، سأنقذ الطير الذي جرحته، ولذ لك أن تعذبه ، وتلهو به .

* * *

وتحرك القطار ، فأغمضت عينيها ، وترنحت قليلاً .

وفي هـــذه اللحظة القصيرة ، احتشدت في ذهنها ذكريات جميلة ، ومرت بباصرتيها صور حياة بأسرها ، بما فيها من مباهج وأحزان ، ومسرات وآلام .

تذكرت طفلها (سيرج) ، انـــه لم يصدق في المرة الاولى انها ماتت ، ومن يدري ، فقد لا يصدق أيضاً في هذه المرة .

وفتحت عينيها ، فشاهدت القطار يتحرك، وقدرت المسافة التي تفصله عنها بنظرة سريعـة ، ثم ألقت حقيبتها على الأرض وصلت صلاة قصيرة ، ورسمت علامة الصليب على صدرها ، ثم قذفت بنفسها تحت العجلات .

— انتهى —

